ابن تيمية.. والآخر!

موقف ابن تيمية النظري والعملي - العقدي والأخلاقي
من المخالفين وموقف المخالفين من الآخر


بسم الله الرحمن الرحيم



موقف ابن تيمية النظري والعملي - العقدي والأخلاقي
من المخالفين وموقف المخالفين من الآخر

عائض بن سعد الدوسري

تقديم

الدكتور محمد عمارة — الدكتور نعمان السامرائي
الدكتور عائض القرني — الأستاذ جمال سلطان





الطبعة الثانية
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٢٤٧٦٢ / ٢٠٠٧م


تقاريظ ومقدمات
بين يدي الكتاب


بسم الله الرحمن الرحيم
إن الله يدافع عن الذين آمنوا

تقديم المفكر الإسلامي الدكتور محمد عمارة
رفع الملام عن شيخ الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

شيخُ الإِسلام ابن تيمية [٦٦١ - ٧٢٨ هـ ١٢٦٣ - ١٣٢٨ م] ..

هو : أبو العباس ، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن عبد الله بن أبي القاسم الخضر ، النميري الحراني ..

فيلسوف السَّلَفية وحكيمها ، الذي انتقل بها من مرحلة الوقوف عند النصّ وَحْدَهُ - وأحيانا ظاهر النَّصِّ - إلى مرحلة فلسفة النَّصِّ وعَقْلَنَتِهِ ..

وهو واحد من أَبرز المجددين في عصره ؛ إِذْ جَمَعَ إلى الاجتهاد .. والجهاد ضد الغُزَاة - بالفكر والسَّيف - تقديم « مشروع فكري » لتجديد الفكر الإسلامي والحضارة الإسلاميّة .

ولو أَنَّ المشروع التجديدي لابن تيمية قد وَجَد « الدَّولة .. والسياسة » التي تنهض به لتغيَّر وجْه العالم الإسلامي ووجهته ، ولاختصرت الأمة من عُصور التَّراجع الحضاريّ عِدَّة قُرون !

ولقد ظلَّت لابن تيمية هذه المكانة المتميزة والمرموقة في حركة الإصلاح الإسلامي ، منذ عصره ، وحتى هذه اللَّحظات .

لقد كان ابن تيمية إمام النَّاقدين والنَّاقضين للفكر اليونانيّ - منطقًا وفلسفة - ومن أبرز الذين اجتهدوا لإبداع البديل الإسلامي لفكر اليونان - الذي تسرَّب إلى كثير من مَنَاحي الفكر الإسلامي - كما كان من أبرز الناقدين للفكر الباطني الغنوصي ، الذي مثل - مع الفكر اليوناني - جناحي التهديد لتميُّز الوسطية الإسلامية الجامعة .. والمتوازنة ..

وُلِد ابن تيمية بحران .. ونبغ واشتهر بدمشق .. وتجلَّت آيات نبُوغه - في المناظرة والاستدلال والتفسير والإفتاء والتدريس - وهو دُون العشرين من عمره .. ولقد كان قلمه ولسانه فرسي رهان في التعبير عن إبداعات عقله الكبير .

وكانت فتاواه - التي خالف في بعضها عددًا من علماء عصره من أَسباب محنته ، وميادين جهاده .. فَسُجن بمصر - بالقاهرة .. والإسكندرية - فلما أُطلق سراحه رحل إلى دمشق [سنة ٧١٢ هـ ، سنة ١٣١٢ م] .. ثم أُعيد اعتقاله بها [سنة ٧٢٠ هـ ، سنة ١٣٢٠ م] .. ثم أُطلق سراحه مرة أخرى .. ثم أُعيد

اعتقاله إلى أن مات معتقلاً بقلعة دمشق [٧٢٨ هـ ، ١٣٢٨ م] ..
ولقد حوّل ابن تيمية سجنه من مِحْنة لحريّته الشخصية إلى نعمة لِسَياحَاتِهِ الفكرية وإبداعاته في علوم الإسلام ..
وعندما مات ، خرجت دمشق عن بَكْرة أبيها في جنازته ، تعبيرًا عن مكانته المتميزة والممتازة بين العلماء المجاهدين .
ولقد خلّف ابن تيمية من الآثار الفكرية ما يزيد على أربعة آلاف كراسة ، غطَّت مختلف ميادين العلوم - من الأُصُول .. إلى الفقه .. إلى التفسير .. إلى الحديث .. إلى السياسة الشرعية .. إلى الفلسفة والمنطق .. إلى الفتاوى التي عكست إمامته لعصره .. وفقهه للواقع الذي عاش فيه .. واستشرافه لمستقبل أُمَّته .. ووعيه بالمخاطر المُحْدِقة بدار الإسلام - وذلك غير الرُّدود الكثيرة التي كتبها على المخالفين .. مسلمين وغير مسلمين .

ومن هذه الآثار الفكرية - غير الفَتَاوى :

١ - « الإيمان » .
٢ - « منهاج السُّنَّة النبوية » .
٣ - « درء تعارض صريح المعقول على صحيح المنقول » .
٤ - « الرد على المنطقيين » .

٥ - « نقض المنطق » .

٦ - « الفرقان بين أولياء الله وأولياء الشيطان » .

٧ - « اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أهل الجحيم » .

٨ - « الصارم المسلول على شاتم الرسول » .

٩- « رفع الملام عن الأئمة الأعلام » .

١٠ - « السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية » .

١١ - « نظرية العقد » .

١٢ - « التوسّل والوسيلة » .

وعشرات الرسائل التي ردَّ فيها على المخالفين .

وكما جَاهَد ابن تيمية بالسَّيف ضد الاختراق « الصَّليبي - التَّتري » لديار الإسلام ، كذلك كان جهاده - بالقلم واللسان - لتحصين العقل المسلم ضد الاختراق الفكري الذي تمثل في الباطنية الغنوصية وفي العقلانية اليونانية اللادينية .. وأيضًا ضد الجمود والتقليد .. والبدع والخرافات ..

وعلى امتداد التاريخ - منذ عصره وحتى الآن - كان ولايزال واحدًا من أَبرز الملهمين لدعوات الإصلاح والتجديد على امتداد عالم الإسلام ..

ولقد كانت النَّظرات الجزئية والمجتزئة لهذا المشروع التجديدي المتكامل الذي أبدعه شيخ الإسلام ابن تيمية ، والتي غفل أصحابها عن رؤية المعالم المتكاملة لهذا المشروع .. كانت وراء سوء الفهم وسوء الظن الذي وُوجِهَ به هذا الإمام العظيم .. سواء من بعض معاصريه .. أَو حتى في العصر الذي نعيش نحن فيه ! ..

نعم .. لقد كان ابن تيمية – ومَشْروعه الفكريّ التجديديّ – ولايزال في حاجة ماسة إلى « العين اللّامة » التي تحيط بمعالمه الكاملة ، والتي تفقهه في ضوء العصر الذي اكتمل فيه ، والتي تميز فيه بين « المنهج » وبين « التطبيقات » ، وبين « الأصول – الثوابت » وبين « الفروع .. المتغيرة » .. وذلك إنصافا لهذا الإمام العظيم من المُتَعصِّبين له والمُتَعَصِّبين ضده جميعًا ! ..

وحتى تنقشع السُّحب عن عبقريته الإسلامية فيعود إلى موقعه المناسب من إمامة الصحوة الإسلامية المعاصرة ، مع غيره من أَقرانه ومن تلاميذه الأئمة الأعلام ..

لقد ارتفعت الكثير من « سحب الأوهام » حول فكر ابن تيمية ، فحَجَبت – أَوْ كادت – حقائق فِكْر هذا الإمام

العظيم .. حتى ظنه البعض :

- عَدُوًّا للعقل .. وكارثة على العقلانية ! ..

- وضيِّق الصَّدر بالخلاف .. يكفّر المخالفين ! ..

- حتى رأينا - في واقعنا الراهن - من يُسمّي نفسه « فيلسوف العلمانية » ينعت شيخ الإسلام ابن تيمية بأنه إمام الرجعية .. وزعيم الإرهابيين !! ..

نعم .. حَدَث كل هذا الخَلْط وسُوء الفهم - مع افتراض حُسْن النية - من غيبة الرؤية المتكاملة لفكر ابن تيمية ومشروعه التجديدي ، وفقهه في ضوء العصر الذي عاش فيه .. والتحديات التي واجهت العقل المسلم في ذلك التاريخ ..

إن خصوم ابن تيمية لم يفقهوا ما أبدعه في العقلانية الإسلامية المتميزة .. وما قدَّمه من « نظرية » متكاملة في علاقة التكامل بين المعقول والمنقول .. ذلك الإبداع الذي مَثَّلَ « ديوانًا في العقلانية المؤمنة » .. والذي نشير إلى عنوانه في هذه السُّطور ، التي يقول فيها :

« إنَّ ما عُرف بصريح العقل لا يُتَصَوَّر أَن يُعارضه مَنْقولٌ صحيح قط .. وقد تأملتُ ذلك في عامة ما تنازع الناس فيه

فوجدت ما خالف النصوص الصحيحة شبهات فاسدة يُعلم بالعقل بطلانها ، بل يُعلم بالعقل ثبوت نقيضها الموافق للشرع . وهذا تأملته في مسائل الأصول الكبار ، كمسائل التوحيد والصفات ومسائل القدر والنبوات والمعاد وغير ذلك .

ووجدت ما يُعلم بصريح العقل لم يخالفه سمع قط ، بل السمع الذي يُقال إنه يُخالفه إما حديث موضوع أو دلالة ضعيفة فلا يصلح أن يكون دليلاً لو تجرّد عن معارضة العقل الصريح ، فكيف إذا خالفه صريح المعقول ؟

ونحن نعلم أن الرسل لا يخبرون بمحالات العقول ، بل يخبرون بمحارات العقول ، فلا يخبرون بما يعلم العقل انتفاءه ، بل يخبرون بما يعجز العقل عن معرفته(١) .

والقول كلما كان أفسد في الشرع كان أفسد في العقل ، فالحق لا يتناقض ، والرسل إنما أخبرت بحق ، والله فطر عباده على معرفة الحق ، والرسل بعثت بتكميل الفطرة لا بتغيير الفطرة .

---

(١) ابن تيمية : [بيان موافقه صريح المعقول لصحيح المنقول] ج١ ص ٨٣ طبعة القاهرة سنة ١٣٢١هـ

قال الله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣] . فأخبر أنه سيريهم الآيات الأفقية والنفسية المبينة لأن القرآن الذي أخبر به عباده حق ، فتتطابق الدلالة البرهانية القرآنية والبرهانية العيانية ، ويتصادق موجب الشرع المنقول والنظر المعقول .. »[١] .

وكثيرون - من خُصوم ابن تيمية ومن أَنصاره - يَظُنُّون أَنَ الرَّجل لم يكن من القائلين بالتحسين والتقبيح العقليين ، بحسبان أن ذلك هو قول المعتزلة ، الذين وقف ابن تيمية من بعض آرائهم موقف الناقد . ولو قرأ هؤلاء وهؤلاء ما كتبه ابن تيمية في التحسين والتقبيح بالعقل لانقشعت عنهم هذه الظنون والأوهام . فلقد كان يَرَى أن هذا القول هو قول جمهور أهل السُّنَّة والجماعة .. وفي ذلك قال :

« وأكثر الطَّوائف على إثبات الحُسن والقُبح العقليين .. وهذا قول الحنفية ، ونقلوه أيضًا عن أبي حنيفة [٨٠ - ١٥٠ هـ ٦٩٩ - ٧٦٧ م] نفسه ، وهو قول كثير من المالكية ،

---

(١) ابن تيمية [منهاج السُّنَّة النبوية] ج ١ ص ٨٢ . طبعة القاهرة سنة ١٣٢١ هـ .

والشافعية ، والحنبلية ، كأبي الحسن التميمي [٣٧١ هـ] وأبي الخطاب ، وغيرهما من أئمة أصحاب أحمد [١٦٤ - ٢٤١ هـ ٧٨٠ - ٨٥٥ م] وكأبي علي بن هريرة [٣٤٥ هـ] وأبي بكر القفال الشاشي [٣٦٥ هـ] وغيرهما من الشافعية . وكذلك من أصحاب مالك [٩٣ - ١٧٩ هـ ٧١٢ - ٧٩٥ م] وكذلك أهل الحديث ، كأبي نصر السجزي [٤٤٤ هـ] وأبي القاسم سعد بن علي الزَّنجاني [سنة ٤٧١ هـ] وغيرهما .

بل هؤلاء ذكروا أن نفي ذلك هو من البدع التي حدثت في الإسلام في زمن أَبي الحسن الأشعري [٢٦٠ - ٣٢٤ هـ ٨٧٤ - ٩٣٦ م] لما ناظر المعتزلة في القدر بطريق الجهم بن صفوان [١٢٨ هـ ٧٤٥ م] ونحوه من أئمة الجبر ، فاحتاج إلى هذا النفي .

قالوا : وإلا فنفي الحُسن والقُبح العقليين مُطلقًا لم يَقُلْهُ أحدٌ من سلف الأمة ولا أئمتها ، بل ما يؤخذ من كلام الأئمة والسلف في تعليل الأحكام وبيان حكمة الله في خلقه وأمره ، وبيان ما فيما أمر الله به من الحُسن الذي يُعلم بالعقل وما في مناهيه من القُبح المعلوم بالعقل ، يُنافي قول النفاة ..

والحُسن والقُبح من أفعال العباد يرجع إلى كون الأفعال نافعة لهم وضارة لهم ، وهذا مما لا ريب فيه أنه يُعرف بالعقل ، ولهذا اختار الرازي [٥٤٤ - ٦٠٦هـ ١١٥٠ - ١٢١٠م] في آخر أمر أن الحُسن والقُبح العقليين ثابتان في أفعال العباد . وأما إثبات ذلك في حقِ الله تعالى فهو مبنيّ على معنى محبة الله ورضاه ، وغضبه وسخطه ، وفرحه بتوبة التائب ، ونحو ذلك .

وأما العقل ، فأخصُّ صفات العقل عند الإنسان أن يعلم الإنسان ما ينفعه ويفعله ، ويعلم ما يضره ويتركه . والمراد بالحسن هو النافع ، والمراد بالقبيح هو الضار . فكيف يقال : إن عقلَ الإنسان لا يميز بين الحسن والقبيح ؟ وهل أعظم تفاضل العقلاء إلا بمعرفة هذا من هذا ؟ بل وجنس الناس يميل إلى من يتصف بالصفات الجميلة ، وينفر عمن يتصف بالقبائح ، فذاك يميل جنس الإنسان إلى سمع كلامه ورؤيته ، وهذا ينفر عن رؤيته وسمع كلامه ..

إن العقل يحب الحق ويلتذ به ، ويحب الجميل ويلتذ به ، وإنَّ محبة الحمد والشكر والكرم هي من العقليات .. وإن للإنسان قوتين : قوة علمية فهي تحب الحق ، وقوة عملية فهي

تحب الجميل ، والجميل هو الحَسَن ، والقبيح ضده .. »[١] .

نعم .. هكذا تحدث شيخ الإسلام ابن تيمية عن قدرة العقل على التحسين والتقبيح .. فأزال أوهامًا متراكمة في « عقول » خصومه وأنصاره أجمعين ! .. فهلا أَعادوا قراءته ؟! .. وهلا فَقِهُوا عباراته الجميلة والعميقة التي يقول فيها :

« إن جنس الناس يميل إلى من يتصف بالصفات الجميلة ، وينفر عمن يتصف بالقبائح .. وإن العقل يحب الحق ويلتذ به ، ويحب الجميل ويلتذ به .. وإن للإنسان قوتين : قوة علمية فهي تحب الحق ، وقوة عملية فهي تحب الجميل ، والجميل هو الحسن ، والقبيح ضده .. وهل أعظم تفاضل العقلاء إلا بمعرفة هذا من هذا ؟ .. فكيف يقال : إن عقل الإنسان لا يميز بين الحسن والقبيح ؟! ..

وكثيرون - من خصوم ابن تيمية .. ومن أنصاره - هم الذين توهموا رفضه للتأويل ، بتعميم وإطلاق .. ولو أنهم فقهوا موقف الرجل لعلموا موقفه من هذه القضية الشائكة .. وهو موقف

---

(١) ابن تيمية [كتاب الرد على المنطقيين] ص ٤٢٠ - ٤٢٢ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣٣ . طبعة دار المعرفة - بيروت - .

متوازن وموضوعي .. يقول فيه :

« والتأويل المقبول ما دلّ على مراد المتكلم .. فالمتأوِّل إذا لم يكن مقصوده معرفة مراد المتكلم كان تأويله للفظ بما يحتمله من حيث الجملة في كلام من تكلم بمثله من العرب هو من باب التحريف والإلحاد ، لا من باب التفسير وبيان المراد .

وأما تأويل ما أخبر الله به عن نفسه وعن اليوم الآخر فهو نفس الحقيقة التي أخبر عنها ، وذلك في حق الله هو كنه ذاته وصفاته التي لا يعلمها غيره .. ولهذا قال السلف : إنا لا نعلم كيفية ما أخبر الله به عن نفسه وإن علمنا تفسيره ومعناه .

وكذلك الصحابة والتابعون ، فسروا جميع القرآن ، وكانوا يقولون : إن العلماء يعلمون تفسيره وما أريد به ، وإن لم يعلموا كيفية ما أخبر به الله عن نفسه ، وكذلك لا يعلمون كيفيات الغيب ، فإن ما أعده الله لأوليائه من النعيم لا عين رأته ولا أذن سمعته ولا خطر على قلب بشر .

وأما من قال : إن التأويل الذي هو تفسيره وبيان المراد به لا يعلمه إلا الله ، فهذا ينازعه فيه عامة الصحابة والتابعين الذين فسروا القرآن كله ، وقالوا إنهم يعلمون معناه .

والآيات التي ذكر الله فيها أنها متشابهات لا يعلم تأويلها إلا الله إنما نفي عن غيره عِلْمَ تأويلها لا عِلْمَ تفسيرها ومعناها .. »[١] .

وفي قضية التكفير لمن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله – كان ابن تيمية – ككل أئمة أهل السُّنَّة والجماعة – شديد الحذر والتحذير من التكفير – على خلاف ما يتوهم الذين لم يفقهوا حقيقة موقف الإسلام من هذه القضية .. التي يتحدث عنها ابن تيمية في حسم ووضوح فيقول :

« والذي نختاره أن لا نكفر أحدًا من أهل القبلة ، والدليل عليه أن نقول : المسائل التي اختلف أهل القبلة فيها مثل : أن الله تعالى هو عالم بالعلم أو بالذات ؟ وأنه تعالى هل هو موجد لأفعال العباد أم لا ؟ وأنه هو متحيز ؟ وهل هو في مكان وجهة ؟ وهل هو مرئي أم لا ؟ لا تخلو إمّا أن تتوقف صحة الدين على معرفة الحق فيها أو لا تتوقف . والأول باطل . إذ لو كانت معرفة هذه الأصول من الدين لكان الواجب على النبي ﷺ أن يطالبهم بهذه المسائل ، ويبحث

---

(١) ابن تيمية [بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول] ج ١ ص ١١٥ - ١٢٠ .

عن كيفية اعتقادهم فيها ، فلما لم يطالبهم بهذه المسائل ، بل ما جرى حديث من هذه المسائل في زمانه عليه السلام ولا في زمان الصحابة والتابعين رضي الله عنهم ، علمنا أنه لا يتوقف صحة الإسلام على معرفة هذه الأصول ، وإذا كان كذلك : لم يكن الخطأ في هذه المسائل قادحًا في حقيقة الإسلام ، وذلك يقتضي الامتناع عن تكفير أهل القبلة .

إن الكفر حكم شرعي ، متَلقًّى عن صاحب الشريعة ، والعقل قد يُعلم به صواب القول وخطؤه ، وليس كل ما كان خطأ في العقل يكون كفرًا في الشرع ، كما أنه ليس كل ما كان صوابًا في العقل تجب في الشرع معرفته .. وإنما الكفر يكون بتكذيب الرسول فيما أخبر به أو الامتناع عن متابعته مع العلم بصدقه .. وقد نقل عن الشافعي [١٥٠- ٢٠٤ هـ ٧٦٧ - ٨٢٠ م] رضي الله تعالى عنه أنه قال : لا أرد شهادة أهل الأهواء إلا الخطابية[١] ، فإنهم يعتقدون حلّ الكذب .

---

(١) الخطابية : من غلاة الشيعة ، أتباع أبي الخطاب محمد بن أبي زينب - مولى بني أسد - وهم مشبهة ، ادعوا نبوة الأئمة ، وأنه لابد من رسول صامت مع الرسول الناطق ، وأن محمدا ﷺ هو الناطق ، وعلي هو االصامت ، ولقد ثاروا بالكوفة إبان الدولة العباسية ، وقمعت ثورتهم سنة ١٤٣هـ .

أما أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه فقد حكى الحاكم [٣٣٤هـ ٩٤٥ م] صاحب [المختصر] في كتاب [المنتقى] عن أبي حنيفة أنه لم يكفّر أحدًا من أهل القبلة .

وحكى أبو بكر الرازيّ عن الكرخي [٢٦٠ - ٣٤٠ هـ ٨٧٤ - ٩٥٢ م] وغيره مثل ذلك .. »[١] .

هكذا أعلن ابن تيمية رفضه تكفير أحد من أهل القبلة ، الذين يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، لأن مسائل الخلاف التي اختلف فيها المسلمون لا يتوقف عليها الإيمان بأصول الدين ، وأركان الإسلام ، التي جاءت بها النصوص قطعية الدلالة والثبوت . وأعلن أن هذا الموقف هو موقف أئمة المذاهب المعتبرة في فكر الإسلام .

وبعد هذه الإشارات إلى مواقف شيخ الإسلام ابن تيمية ، وخياراته الفكرية والفقهية ، ندرك الحاجة الماسة إلى إعادة قراءة تراثه قراءة واعية ومتكاملة ، لا لإنصافه فقط - وتلك فريضة فكرية - وإنما لإعادة مشروعه التجديدي كي يفعل فِعْلَه

---

(١) ابن تيمية [بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول] ج ١ ص ٥٠ ، ١٤٤ ، ١٤٥ .

المناسب في يقظة الأمة الإسلامية من جديد .

ويزيد من أهمية هذه القضية - إنصاف الرجل .. والدعوة إلى الاستفادة من تراثه الفكري- **أن أئمة الصحوة الإسلامية وأعلام الإحياء الإسلاميّ الحديث قد وقفوا هذا الموقف من تراث شيخ الإسلام** ، الأمر الذي يدلّ على أن تراثه الغني قد كان حاضرًا وفاعلاً في فكر هؤلاء الأئمة الأعلام ..

(١) فالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م] قد دعا إلى إنصاف ابن تيمية من افتراءات خصومه .. ووصفه بأنه « **أعلم الناس بالسُّنَّة وأشدهم غيرة على الدين** » . وذلك عندما تحدث عن الظلم الذي لحق عددا من أئمة الإسلام وعلمائه .. من مثل حجة الإسلام الغزالي [٤٥٠ - ٥٠٥ هـ ، ١٠٥٨ - ١١١١ م] الذي أُحرقت كتبه في « غرناطة » في عصر المرابطين [٤٨٣ - ٥٤١ هـ ١٠٩٠ - ١١٤٧ م] وشيخ الإسلام ابن تيمية ، الذي قال عنه الأستاذ الإمام :

« **لقد قال قوم يعدّون أنفسهم مسلمين في ابن تيمية - وهو أعلم الناس بالسُّنَّة وأشدهم غيرة على الدين : إنه ضال مضل . وجاء على أثر هؤلاء مقلدون يملئُون أفواههم بهذه الشتائم ،**

وعليهم إثمها وإثم من يقفوهم بها إلى يوم القيامة .. »[١] .

(٢) أما عن تأثير ابن تيمية في حركة الإصلاح الإسلاميّ بالمغرب العربيّ .. فإن **الشيخ محمد البشير الإبراهيمي** [١٣٠٦ - ١٣٨٥ هـ ١٨٨٩ - ١٩٦٥ م] يشير إليه ، في مواطن عديدة من آثاره الفكرية .. فيقول عن الأئمة الأعلام الذين ألهموا رواد هذا الإصلاح الإسلاميّ الحديث ، والذين أناروا الطريق ، في مواجهة الفكر الخرافي المتحالف مع الاستعمار والسحق الحضاريّ .

« ومازلنا نلمح وراء كل داجية في تاريخ الإسلام نجمًا يشرق ، ونسمع بعد كل خفتة فيه صوتا يخرق ، من عالم يعيش شاهدًا ، ويموت شهيدًا ، وينزله بعده ما تتركه الشمس من شفق يهدي السارين المدلجين إلى حين ..

وما علمنا فيمن قرأنا أخبارهم ، وتقفينا آثارهم من علماء الإسلام مثلاً شرودا في شجاعة النزال بعد الحافظ الربيع بن سالم ، عالم الأندلس .. ولا علمنا فيهم مثالاً في شجاعة الرأي العام أكمل من

---

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٣ ص ٣٥٩ . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة دار الشروق - ١٩٩٣م .

الإمام أحمد بن تيمية .. فقد شَنَّهَا حربًا شعواء على البدع والضلالات أقوى ما كانت رسوخًا وشموخًا ، وأكثر أتباعًا وشيوخًا بظاهرها الولاة القاسطون ، ويؤازرها العلماء المتساهلون والمتأوّلون .

وقد ادخر الله لهذا العصر الذي تأذن فجر الإسلام فيه بالانبلاج ، الواحد الذي بذَّ الجميع في شجاعة الرأي والفكر وقوّة العلم والعقل ، وجرأة اللسان والقلب ، وهو محمد عبده فهز النفوس الجامدة ، وحرك العقول الراكدة ، وترك دويًّا ملأ سمع الزمان ، وسيكون له شأن .. (١) .

ثم يُنَبّه الشيخ البشير الإبراهيمي – من موقع الرجل الثاني في حركة الإصلاح الإسلامي – بالجزائر – إلى دور فكر شيخ الإسلام ابن تيمية – مع فكر الشيخ محمد عبده – في تبلور بواكير هذا الإصلاح الديني – الذي واجهت به جمعية العلماء المسلمين بالجزائر – تحالف « الطرقية والاستعمار الفرنسي » ، فيقول :

« إنهم : قبل أن يظهر الإصلاح بهذا الوطن ، وتلهج الألسنة

---

(١) [آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي] ج ٤ ص ١١٣ . جمعها وقدم لها : د . أحمد طالب الإبراهيمي . طبعة بيروت سنة ١٩٩٧ م .

باسمه ، كانوا يلعنون ابن تيمية [٦٦١ - ٧٢٨ هـ ١٢٦٣ - ١٣٢٨ م] وابن حزم [٣٨٤ - ٤٥٦ هـ ٩٩٤ - ١٠٦٤ م] ومحمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م] وغيرهم من أئمة الإسلام الذين جهروا بإنكار البدع ، فلما ظهر الإصلاح بالمظهر الفرديّ كان أمضى سلاح يقاومونه به قولهم : « تيمي ، عبداويّ » ! نسبة إلى ابن تيمية ومحمد عبده ! .. »[١] .

ثم يتحدث عن دور مجلة [المنار] للشيخ محمد رشيد رضا [١٢٨٢ - ١٣٥٤ هـ ١٨٦٥ - ١٩٣٥ م] وكتب ابن تيمية وابن القيم [٦٩١ - ٧٥١ هـ ١٢٩٢ - ١٣٥٠ م] والشوكاني [١١٧٣ - ١٢٥٠ هـ ١٧٦٠ - ١٨٣٤ م] في هذا الإصلاح الديني ، فيقول :

« ويضاف إلى هذا قراءة [المنار] .. واطلاع بعض الناس على كتب المصلحين القيمة ، ككتب ابن تيمية وابن القيم والشوكاني .. فهذا عامل له أثره في التمهيد للدعوة الإصلاحية »[٢] .

---

(١) المصدر السابق . ج ١ ص ١٢٧ .

(٢) المصدر السابق . ج ١ ص ١٨١ .

(٣) أما رئيس جمعية العلماء المسلمين بالجزائر **الإمام عبد الحميد بن باديس** [١٣٠٨ - ١٣٥٩ هـ ١٨٨٩ - ١٩٤٠م] فإنه يعيد نشر محاضرة الأستاذ محمد كرد علي [١٢٩٢ - ١٣٧٢ هـ ١٨٧٦ - ١٩٥٣ م] عن الشيخ طاهر الجزائري [١٢٦٨ - ١٣٣٨ هـ ١٨٥٢ - ١٩٢٠ م] .. **« والذي ولع في صباه بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وكانت جمهرة الفقهاء في عصره تكفّر ابن تيمية تعصبًا وتقليدًا لمشايخهم ، فلم ير الشيخ طاهر الجزائري لتحبيبهم بابن تيمية إلا نَشَر كتبه بينهم من حيث لا يدرون ! ، فكان يستنسخ رسائله وكتبه ويرسلها مع من يبيعها في سوق الوراقين بأثمان معتدلة ، لتسقط في أيدي بعضهم فيطالعونها ، وبذلك وصل إلى غرضه من نشر آراء .. شيخ الإسلام التي هي لباب الشريعة »**(١) .

(٤) وكما رأت الدعوة الإصلاحية - ببلاد المغرب الإسلامي - في فِكرِ شيخ الإسلام ابن تيمية « لباب الشريعة الإسلامية » .. كذلك رأت فيه حركة الصحوة الإسلامية ببلاد المشرق

---

(١) [ابن باديس : حياته وآثاره] ج ٤ ص ١٥٦ ، ١٥٧ . جمعها وقدم لها : د . عمار الطالبي . طبعة الجزائر سنة ١٣٨٨ هـ ١٩٦٨ م .

الإسلامي - في القارة الهندية - أبرز المجددين في التاريخ الوسيط لأمة الإسلام .

ففي دراسة **العلامة أبي الأعلى المودودي** [١٣٢١ - ١٣٩٩ هـ ١٩٠٣ - ١٩٧٩ م] لتاريخ تجديد الدين الإسلامي وإحيائه .. عرض لمشاريع التجديد وإنجازات المجددين .. وأجرى دراسة نقدية - ومقارنة - بين هؤلاء المجددين .. وفي دراسته المقارنة بين حجة الإسلام أبي حامد الغزالي [٤٥٠ - ٥٠٥ هـ ١٠٥٨ - ١١١١ م] وبين شيخ الإسلام ابن تيمية ، رجَّح المودودي كفة شيخ الإسلام على كفة حجة الإسلام .. وكتب يقول :

« لقد تخللت عمل الغزالي التجديدي- مع عظمته التي أكسبته صفة « حجة الإسلام » - نقائص من الجهة العلمية والفكرية ، تقسم على ثلاثة أنواع :

نوع منها كان مأتاه ضعف الإمام في علم الحديث .

والنوع الثاني : كان منشؤه استيلاء العلوم العقلية على ذهنه .

والنوع الثالث : وقع في أعماله لميلانه المتطرف إلى التصوّف .. » .

وبعد هذا النقد لمشروع الغزالي التجديدي ، تحدّث

المودودي عن مشروع ابن تيمية لتجديد الدين وإحيائه ، فرآه « قد وفق في توسيع دائرة العمل الذي تَرَكه الإمام الغزالي إلى وجه أحسن وأتم .. فهو :

أولاً : انتقد المنطق والفلسفة اليونانية انتقادًا أشد وأدق مما فعله الإمام الغزالي ..

وثانيًا : أقام من الأدلة والبراهين على استقامة عقائد الإسلام وأحكامه وقوانينه ما كان يفوق أدلة الإمام الغزالي سوغانا في العقل وأحوى منها لروح الإسلام .

وثالثا : لم يجتزئ برفع النكير على التقليد الجامد فحسب بل ضرب المثل بمزاولة الاجتهاد على طريقة المجتهدين من القرون الأولى .

رابعا : جاهد البدع وتقاليد الشرك وضلال العقائد والأخلاق جهادًا قويًّا عنيفًا ، ولاقى في سبيل ذلك أعظم المصائب .

ومضافًا إلى هذا العمل التجديديّ ، جاهد بالسيف همجية التتار ووحشيتهم .. » .

ولا ينسى المودوديّ - مع هذا الإعجاب بشيخ الإسلام ابن

تيمية - أن ينبه على الثغرة التي أضعفت مشروعه التجديديّ .. وهي افتقاره إلى « السلطة السياسية » التي تضعه في الممارسة والتطبيق .. فابن تيمية - برأي المودودي - « **لم يوفق لبعث حركة سياسية في المسلمين ، يحدث بها الانقلاب في نظام الحكم ، وتنتقل مقاليد الحكم والسلطة من أيدي الجاهلية إلى أيدي الإسلام** » !![١] .

هكذا ، غدا المشروع التجديدي لشيخ الإسلام ابن تيمية عاملاً فاعلاً في حركة الإحياء والإصلاح والتجديد الإسلاميّ في عصرنا الحديث وواقعنا المعاصر .. سواء منها « الإصلاح الفكري » أو « الإصلاح الحركي » .. ولقد استوت في ذلك سائر بلاد الإسلام .. من محمد عبده ، مهندس المشروع الإحيائي لليقظة الإسلامية الحديثة . إلى رشيد رضا ، الذي حمّل [المنار] فكر هذه اليقظة إلى مختلف بقاع العالم الإسلامي على امتداد نحو أربعين عاما إلى أئمة الإصلاح الإسلامي ببلاد المغرب الإسلامي : **الشيخ عبد الحميد بن باديس** .. والشيخ محمد البشير الإبراهيمي .. إلى

---

(١) أبو الأعلى المودودي [موجز تاريخ إحياء الدين وتجديده] ص ٧٣ ، ٧٦ - ٧٩ . ترجمة : محمد كاظم سباق . طبعة بيروت سنة ١٣٩٥ هـ ١٩٧٥ م .

شبه القارة الهندية - بمشرق العالم الإسلامي - عند العلامة المودودي .. ومن قبله ولي الله الدهلوي [١١١٠ - ١١٧٦ هـ ١٦٩٩ - ١٧٦٢ م] . هكذا رأينا الرجل الذي مات مظلومًا مسجونًا قد غرس في ساحة العقل الإسلاميّ بذور الكلمات « الواعية - الطيبة » التي بارك الله فيها ، فعدت المظلة التي يستظل بها زعماء الإصلاح الديني على امتداد عالم الإسلام ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ * تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [إبراهيم : ٢٤] .

لقد مَثَّل ابن تيمية هذا الصرح الخالد في تاريخ الفكر الإسلامي .. وجَسَّد هذا العطاء المتجدد في مناهج الإحياء والتجديد لفكر هذه الأمة ، لأسباب كثيرة .. **منها** :

١- إخلاصه للإسلام وأمته وحضارته ودياره .. وتكريس كل حياته وجميع طاقاته لهذه الرسالة العظمي .. حتى لقد غدا - في هذا الميدان - عَلَمًا من أعلام العلماء الذين هم ورثة الأنبياء .. العلماء العدول ، الذين ينفون - بالوسطية الإسلامية الجامعة - عن هذا الدين « تحريف الضالين وانتحال المبطلين » ..

٢ـ واحتضانه تراث الإسلام ، على اختلاف مذاهب أئمة الإسلام .. دونما تعصب لمذهب دون الآخر ، أو تخندق في فرقة دون سواها .. فلقد كان مدافعا عن الحق – كما أراه ذلك اجتهاده – وناقدًا للخطأ – كما أراه ذلك ، اجتهاده .. مع الدعوة إلى (رفع الملام عن الأئمة الأعلام) الذين خالف اجتهاده اجتهاداتهم .. فكان هذا العنوان الذي اتخذه لأحد كتبه منهاجًا في تعامله مع الأئمة الذين تركوا بصماتهم على الفكر الإسلامي ، على امتداد تاريخ الإسلام ، وتنوع المذاهب التي ذهب إليها هؤلاء الأئمة الأعلام .

٣ـ وبلوغه – على درب الإخلاص لمشروعه التجديديّ – إلى درجة « الجهاد » لتحقيق « الاجتهاد » ! .. فلم يكن ابن تيمية مجرد فقيه .. وفيلسوف .. وإنما كان « مجددًا » لفكر الأمة وحياتها وواقعها الذي تعيش فيه .. وفي هذا الميدان قدَّم حياته وحريته قربانًا في هذا « الجهاد » .

٤ـ كذلك ، كان شيخ الإسلام ابن تيمية مرابطًا على ثغور الإسلام .. لا يكتفي بالجهاد الداخلي – في عقل الأمة وواقعها – وإنما كان شديد البصر والبصيرة بالمخاطر الخارجية

التي تحدق بحضارة الإسلام وديار الإسلام .. وفي هذا الميدان كان شديد الوعي « بفقه الأولويات » ، حتى لقد حمل السلاح وحارب الصليبيين والتتار تحت قيادة النظم السياسية التي مات في سجونها !! .. فضرب لنا مثلاً في الوعي الحضاري بفقه الأولويات لازلنا في حاجة إلى فقهه حتى هذه اللحظات .

وإذا كانت الدراسات التي كتبت عن ابن تيمية - فضلاً عن تراثه الفكريّ - إنما تكوّن مكتبة غنية متكاملة في فكرنا الإسلامي .. فإن ما أشارت إليه هذه الصفحات من مواقفه - التي غفل عن حقيقتها الكثيرون من خصومه ومن أنصاره - وخاصة موقفه من العقل وعلاقته بالوحي والشرع والنقل .. وموقفه من التأويل .. ورفضه القاطع لتكفير من يشهد أن لا إله إلا الله محمد رسول الله .. وكذلك حضوره في دعوات الإحياء الإسلامي الحديثة وعند حركات هذا الإحياء .. إنما تمثل نماذج لميادين تحتاج إلى دراسات وفقه ووعي بما قدم ابن تيمية في هذه الميادين .

إن هذا الإمام العظيم ، الذي مثلت سلفيته أصالة الفكر الإسلامي ، هو ذاته الذي غدا إماما لدعوات العقلانية والاستنارة في عصرنا الحديث .. ولذلك ، كان حرامًا - وإجرامًا - أن

يقول عنه ذلك الذي يُسمّى نفسه « فيلسوف العلمانية » : « إنه مصدر الرجعية وزعيم الإرهاب » ! ..

وأن تقول عنه طريقة صوفية تملأ بطونها بسحت الدنانير النفطية : إنه الخبيث المكابر ناقص العقل .. الذي في قلبه مرض .. المكذب لرب العالمين .. الخارج من الدين ، الذي استبدل عقيدة التثليث بعقيدة التوحيد » !! .. حرام أن يقال هذا الفحش على هذا الشيخ من شيوخ الإسلام ! .

تلك صفحات أردنا بها رفعَ الملام عن شيخ الإسلام ابن تيمية ..

ولتكون تقديمًا لكتاب كتبه شاب نابه من المحبين لابن تيمية .. هو الابن العزيز الأستاذ عائض بن سعد الدوسريّ .. الذي نرجو له - ولكتابه - أن يكون كلمة صدق في الإنصاف لهذا الإمام العظيم ..

والله من وراء القصد .. نسأله العون والتوفيق .. إنه - سبحانه - أفضل مسئول وأكرم مجيب .

دكتور

محمد عمارة

القاهرة : ٢١ ربيع الآخر سنة ١٤٢٨ هـ

٨ مايو سنة ٢٠٠٧ م .

تقديم فضيلة الشيخ العلامة الدكتور نعمان السامرائي

بسم الله الرحمن الرحيم

ابن تيمية – يرحمه الله – رجل موسوعي ، لم يترك باباً من أبواب المعرفة إلا وطرقه ، بل وتعمق فيه ، ولي تجربة مع شيخ الإسلام ابن تيمية ، فقد كنتُ سجلت في جامعة القاهرة للحصول على شهادة الدكتوراه في الفقه في السبعينات ، وذات مساء وفي مسجد في حي المهندسين وجدتُ مجموعة من الشباب – من طلبة الجامعة – يقولون : أنت غريب . ثم يعرضون أن يزوروني في البيت ، فرحبت بهم ، وتبين أنهم يدرسون تخصصات مختلفة ، ليس بينهم مثلاً من يدرس الشريعة أو اللغة العربية ، ولكن المفارقة أنهم لا يتحدثون ولا يناقشون إلا موضوع (التكفير) ، وحاولت أن أبعدهم عن الموضوع ففشلت .

وفي خلال ساعات قلتُ : لقد كانت رسالتي للحصول على شهادة الماجستير عنوانها (أحكام المرتد) فشعرت كأن الشباب سقطوا على كنز ، وقال بعضهم : أنت تشتغل

« مكفراتي » وتنكر علينا ذلك !

وبعد جلسة استهلكت ساعات ، اعتقدت أنها الأولى والأخيرة ، ولكن الشباب راحوا يكررون الزيارة ولا حديث غير التكفير ، فقررت أن أقوم بتدوين ما يقولون مع الحجج والبراهين .

شعرتُ أن من خلف الشباب قد وضع منطقاً أرسطياً جديداً ، مثل : الحكام كفروا لأنهم لا يحكمون بما أنزل اللّه ، والمحكومون كفروا لرضاهم بما فعل الحكام .

ومثال أعجب : إنَّ الأمة كفرت لأنها لم تعد تفهم الشهادة ، ولو بقيت تدعي الإسلام فهي وعاء زجاجي وضع فيه ملح ، وكُتب عليه (سكر) فالكتابة لا تغير من المحتوى .

وبعد أن مضى على الحوار سنوات ، وشاع التكفير وعم ، كتبت بحثاً ناقشتُ فيه القضايا التي طرحت وأضفت عليها بعض ما كتب ، وقمتُ بنشر البحث تحت عنوان (التكفير : جذوره وأسبابه ومبرراته)[١] .

---

(١) أصل الكتاب بحث تقدم به الأستاذ الدكتور نعمان السامرائي للترقية إلى الأستاذية ، وتمت ترقيته مع الثناء على حسن عرض الكتاب ، وقد لقي الكتاب استحساناً جيداً ، حيث نفذت الطبعة الأولى خلال أقل من عام ، وتوالت طبعات الكتاب بعد ذلك .

أما الشباب من مصر فوجدت فيهم حماسة عالية في مقابل علم قليل ، وقدرة على الجدل ، ورغبة فيه ، كما وجدتهم لا يحترمون عالماً ولا باحثاً سوى شيخ الإسلام ، مما حملني على الاستشهاد بجلّ ما يقول ، قلتُ لهم مرة : ما تطرحونه ليس جديداً فهو موجود لدى كل من كتب في الفَرَقِ أمثال البغدادي وغيره ، وجاء الرد منهم : « ما تذكره لا نعرف عنه شيئاً ، هذا الفكر وُلِدَ في السجون وتحت التعذيب ، ولا شيء غيره » .

وهناك مفارقة جديدة ، حيث قلتُ لهم : يا شباب ، الحماس وحده لا يكفي ، في مصر علماء وعليكم الاتصال بهم والتحاور معهم ، فكان جوابهم : أنت غريب ، حسن الظن ، والعلماء عندنا أصناف ، صنف من وعاظ السلاطين ، سهل الالتقاء بهم ، لكنا لا نثق بهم ولا بعلمهم ، وصنف نثق به وبعلمه ونعجز أن نصل إليه ، وهذا جزأ مما نُعانيه .

لقد ألزمني الشباب أن أرجع في القضايا الساخنة التي يطرحونها إلى شيخ الإسلام ورأيه واجتهاده ، فرأيت الرجل يسير على نهجين وفي خطين :

الأول : الفتوى ، فإذا أراد الفتوى درس الأمر لدى جل من

سبقه ، ثم لخَّص ما توصلوا إليه ، ليعلن بعد ذلك رأيه واجتهاده ، بعيداً عن الحماس والاْندفاع ، مع التحري الكبير للتوازن والوضوح .

الثاني : الوعظ ، وهنا يمنح نفسه ، ويستعمل طاقاته العلمية وكل معارفه ، في منهجية يغلب عليها « الترغيب والترهيب » .

لقد دفعني الشباب نحو قراءة كل ما كتبه شيخ الإسلام عن (التكفير) وهنا وجدت الرجل يبحث بحثاً متوازناً ، كأبعد ما تكون الرغبة في (التكفير) ، ومما يحزن ويدمي أن نجد شباباً لا زاد لهم ولا علم يتبنون التكفير بأقبح وأبشع صوره ، فكل من لا يعجبهم ، أو يختلف معهم في رأي أو قضية فهو كافر مرتد ، ثم تنظر إلى القائل فإذا هو أُمِّي قد يُحسن فكَّ الخطِّ أو لا يحسن ، وليس له من الإسلام إلا شارات أو علامات ظاهرية ، وقد لا يحسن تلاوة كتاب اللّه ، وإن تلاه فلا يحسن فهمَه ، وإن فهم فإنه بعيد كل البعد أن يفقه فقه الأولويات .

ويُحزنني ويُقلقني أشد القلق أن أجد أناساً هربوا من بلاد المسلمين للغرب ، وبدلاً من دراسة الحضارة الغربية ، وتحديد الجوانب الإيجابية والسلبية فيها ، راحوا يعجبون بالتكفير وأهله

عندنا ، البعض يعد نفسه من أهل العلم والفكر ويطلع علينا بالكثير من المؤلفات ، فإذا جالسته أو حاورته ، وجدت نفسك أمام (تكفيري) لا يعجبه أحد في الدنيا سوى ما يفعله التكفيريون ، وهو عار يسود وجه الأمة ، وفقه أعرج يصدر عمن لا علم له ولا معرفة بالإسلام ، ولا مسيرة التاريخ ، ولا تفسير التاريخ .

الحلُّ ليس بالتكفير وقطع الرؤوس ، ولا بالسيارات العمياء المفخخة ، ولا بنشر فرق الموت التي تقتل على الهوية ، القتل يأتي بالقتل ، وجواب العنف عنف أشد ، وتهجير الإنسان من بيته ووطنه قتل له مع تأخير الدفن . والتكفير اليوم في بلدي المنكوب -العراق- يحصد جل علمائنا وأفضل رجالنا ، ومن نجا فإن فرق الموت له بالمرصاد ، ولم يبق أمام أهلي سوى الهجرة خارج البلد والكل يسأل متى العودة ؟

فإلى عُشَّاق التكفير وأهله ، أقول : الأمم لا تبنى هكذا ، والحانوتي يحسن دفن الموتى ولا شيء فوق ذلك ، والتكفيريون لن يقدموا لهذه الأمة حلًّا لمشكلة من مشاكلها الكثيرة ، بل هم اليوم أكبر وأعظم مشاكلها .

شيخ الإسلام وقضية التكفير[١]

مع وفرة ما خلفه شيخ الإسلام من تراث كثير متنوع ، في شتى صنوف المعرفة العقلية والنقلية ، لكن الطابع العام لهذا التراث يمتاز بالوضوح ، وجودة العرض ، والإنصاف ، وقلة الاندفاع ، مع دخوله في معارك ، إذ لم يترك أحداً لديه انحراف أو خطأ مهما كان إلا نبه عليه ، يمدحه ويثني عليه فيما أحسن وأجاد ، ويوضح خطأه فيما يخطأ ، وفي ساحة التكفير لم يكن مسارعاً ولا متهجماً ، فهو يعلم حساسية القضية ، ودقة الخوض فيها ، وسأورد بعض الشواهد على ذلك وبالله التوفيق .

أولاً : عدم المسارعة في التكفير :

كررتُ على شباب التكفير أن شيخ الإسلام دقيق جدًّا في هذه القضية ، وليس كما تفعلون ، وهو حذر جدًّا حين يخوض ويبحث ، فهو يكرر مثلاً قوله :

(هذا مع أني دائماً - ومن جالسني يعلم ذلك - أني من أعظم

---

(١) سوف يصدر قريباً - بإذن الله - للدكتور نعمان السامرائي - حفظه الله - كتاب مهم في هذا الباب بعنوان : (التكفير قديماً وحديثاً : التكفير عند شيخ الإسلام) وقد تبنت مؤسسة الملك فيصل بالرياض طباعته ، والكتاب يحتوي على (٣٣) فصلاً ، وكثير من الكتاب يعالج مسألة التكفير عند شيخ الإسلام ابن تيمية .

الناس نهياً عن أن ينسب معين إلى تكفير ، وتفسيق ، ومعصية ، إلا إذا علم أنه قد قامت الحجة الرسالية ، التي من خالفها كان كافراً تارة ، وفاسقاً أخرى ، وعاصياً أخرى ، وأني أقرر أن اللَّه قد غفر لهذه الأمة خطأها ، وذلك يعم في المسائل الخبرية القولية والمسائل العملية . وما زال السلف يتنازعون في كثير من هذه المسائل ، ولم يشهد أحد منهم على أحد لا بكفر ولا بفسق ولا معصية)[١] .

ثانياً : دفاعه عن العلماء :

للشيخ – يرحمه اللَّه – موقف معروف في الدفاع عن علماء الأمة ، ممن تقدموه ، وإن خالفهم في أكثر من قضية ، وهو يرفض نسبة الكفر إليهم ، بل يطالب بتشديد العقوبة على من يفعل ذلك .

يقول – رحمه الله – : (لقد اتفق المسلمون على أنه لا يكفر أحد من هؤلاء الأئمة ، ومَن كَفَّرَهم استحق العقوبة الغليظة ، التي تزجره وأمثاله عن تكفير المسلمين)[٢] .

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٢٩/٣) .

(٢) مجموع الفتاوى (١٠١/٣٥) .

ولقد وجدتُ شيخ الإسلام ابن تيمية - يرحمه الله - ينصف إخوانه ، وإن لم ينصفوه حياً ولا ميتاً ، فيقول : (وقد اتفق أهل السنة والجماعة على أن علماء المسلمين لا يجوز تكفيرهم ، بمجرد الخطأ المحض ، بل كل أحد يؤخذ من قوله ويترك ، إلا رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وآله وسلم ، وليس كل من يترك بعض كلامه لخطأ أخطأه يكفر ويفسق ، بل ولا يأثم)[١] .

موقف عظيم جليل يُسجل للشيخ رغم ما لاقاه من بعض العلماء قديماً وحديثاً .

ثالثاً : تكفير العام وتكفير شخص معين :

خلال الحوار مع شباب التكفير ذكرت عرضاً أننا نقول عادة : من قال ذلك كفر ، ومن فعل ذلك كفر ، لكن إذا قال فلان من الناس ذلك أو فعله لا نكفره ، أو لا نسارع لتكفيره ، فقد يكون جاهلاً ، وقد تكون شبهة تأويل أو غيرها ، فتكفير الشخص « المعين » يحتاج إلى تأنٍّ وعدم مسارعة .

عندها قال الشباب - بحدّة - هذا التفريق لا معنى له ، وهو وسيلة لإبطال الأحكام الشرعية والتلاعب بها ، إذ لا فرق هنا بين

---

(١) مجموع الفتاوى (٣٥/١٠٠) .

العام والخاص ، فالأقوال والأفعال لا تصدر إلا عن إنسان ، فما معنى أن نجرم الفعل أو القول ، ولا نسند ذلك الحكم لقائله أو فاعله ؟

قلتُ : لأن هذا القائل أو الفاعل لا بد من أن نتحقق حالته العينية ومن حصول الشروط التي يكفر بتوفرها ، وبانتفاء موانع التي لا يكفر بوجودها .

وأخيراً سألتهم : هل تقبلون قول شيخ الإسلام ابن تيمية في المسألة ؟ قالوا : نعم .

قلتُ : إذن اتفقنا فالشيخ يكرر هذه القضية مرات كثيرة ، نظراً لكثرة الأسئلة ، أو كثرة الاستشهاد بالقضية .

يقول شيخ الإسلام : (.. . والتحقيق -في هذا القول- أنه قد يكون كفراً كمقاله الجهمية الذين قالوا : إن اللّه لا يتكلم ، ولا يُرَى في الآخرة ، لكن قد يخفى على بعض الناس أنه كفر ، فيطلق القول بتكفير القائل ، كما قال السلف : من قال : القرآن مخلوق فهو كافر ، ومن قال : إن اللّه لا يُرَى في الآخرة فهو كافر ، ولا يكفر الشخص المعين ، حتى تقوم عليه الحجة)[١] .

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٢٣٠) .

وقال : (وكنتُ أُبيِّنُ لهم أن ما نقل لهم عن السلف- الأئمة من إطلاق القول بتكفير من يقول كذا وكذا ، فهو أيضاً حق ، لكن يجب التفريق بين الإطلاق والتقييد)[1] .

رابعاً : موقف شيخ الإسلام ممن خاصمهم .

من المعروف أن شيخ الإسلام -يرحمه الله- محارب بالسيف والقلم ، وكان صاحب فكر موسوعي ، ولم يترك جماعة يعتقد بوجود انحراف لديها إلا هاجمها ، وكشف ما عندها من خطل وخطأ ، فأشعل معارك ، حتى اكتوى بنارها ، لكن ذلك لم يبعده عن التمييز بين الخير والشر ، ولا بين الحق والباطل ، فعرف الفضل للخصوم ، واعترف به . ومعلوم أن الإنسان لا يخلو من فضيلة ، ولا هو معصوم عن الخطأ ، فمن غلبت حسناته فقد فاز ، ومن رجحت سيئاته فقد خسر ، أما الميزان في ذلك ، فيقول ابن تيمية : (فإنه يحمد من حال كل قوم ما حمده اللّه ورسوله صلى اللّه عليه وآله وسلم ، كما جاء في الكتاب والسنة ، ويذم من حال كل قوم ما ذمه اللّه ورسوله صلى اللّه عليه وآله وسلم)[2] .

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/٥٠٠) .

(٢) الاستقامة (١/٢٢١) .

ثم لا يكتفي بهذا التعميم ، بل يسمي الناس بأسمائهم ، فيقول : (وقد ذهب كثير من مبتدعة المسلمين ، من الرافضة والجهمية وغيرهم ، إلى بلاد الكفار ، فأسلم على أيديهم خلق كثير ، فانتفعوا بذلك ، وصاروا مسلمين مبتدعين ، وهو خير من أن يكونوا كفاراً)[١] .

وقد أثنى على جهود المعتزلة والأشاعرة والماتريدية والكلابية وغيرهم في الدفاع عن الإسلام والتصدي لشبهات الدهرية والثانوية والمانوية وغيرهم ، وأنصفهم في أمور كثيرة .

وقد يُبين ابن تيمية ميزانه ومعياره في قبول الأشياء ، ويرى أن من ملتزمات الحق والعدل أن نقبل الحق ولو صدر من مبتدع أو كافر!

يقول شيخ الإسلام : (اللّه قد أمرنا أن لا نقول إلا الحق ، وأن لا نقول عليه إلا بعلم ، وأمرنا بالعدل والقسط ، فلا يجوز لنا إذا قال يهودي أو نصراني ، فضلاً عن الرافضي قولاً فيه حق أن نتركه أو نرده كله ، بل لا نرد إلا ما فيه من الباطل ، دون ما فيه من الحق)[٢] .

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/٩٦) .

(٢) منهاج السنة (٢/٣٤٢) .

والسؤال : هل يلتزم خصوم الشيخ وتلاميذه بهذا المنهج الصارم ؟!

خامساً : ما يعجبني من شيخ الإسلام :

يعجبني من شيخ الإسلام ابن تيمية ، أُمُور :

١ ـ شجاعته ، فهو متى آمن بشيء قاله ، وقد دَفَعَ ثمناً كبيراً لذلك فكان السجن وعقد المحكمات ، حتى مات في السجن .

٢ ـ الشيخ مُنصف لأعدائه ، فلا تحمله عداوتهم على إنكار حقهم وفضلهم ، مع شدته عليهم ، وعظيم إنكاره لمعتقداتهم .

٣ ـ يتميز الشيخ بدقة أحكامه ، وعدم التغافل والابتعاد عن الواقع ، فهو يأخذ بعين اعتباره الواقع كثيراً .

٤ ـ لقد دَرَسَ علوم زمانه ، كما درس الفرق دراسة مستوعب متعمق ، ثم راح ينقدها ويناقشها ، ولذا فقد ابتعد عن السفاسف والقضايا الشخصية .

٥ ـ إنه مميز جداً بين الخطأ والصواب ، والحق والباطل ، لذا فهو يعترف بالحق وإن قل ، ويهاجم الخطأ ، ويقوم بتصويبه .

٦ ـ اشتغاله بمختلف العلوم جعل منه مثقفاً موسوعياً ، يُحْسن النقد والمناقشة ، ويفلح فيها ، ويحسن الحوار وعرض ما عنده .

٧- كان يحمل هموم الأمة ، لذا ارتفع عن الصغائر والقضايا الشخصية .

٨- رغم حدته وشدته لم يسقط في التكفير ، وعرف لأهل العلم قدرهم ، رغم ما لاقاه من الكثير منهم .

وقد حزنتُ حين قرأتُ ما سطره الأخ الدكتور محمد عمارة من أن فيلسوفاً علمانياً ينعت ابن تيمية بأنه إمام الرجعية ، وزعيم الإرهاب . واعتقد – شبه جازم – أن فيلسوف العلمانية لم يقرأ من كتب شيخ الإسلام شيئاً ، ولو قرأ فلن يفهم ، ولغة الرجعية والرجعيين سمعناها من حكام فاشلين ، و [ردَّاحين] يلوكون مثل هذه التهم ، وقد أشبعونا هزائم وتهم .

وأخيراً .. فلقد سررتُ أكبر السرور أن يقوم « تلميذ » أحبه ويحبني ، فيكتب عن شيخ الإسلام ، وقد سألني رجل : كم لديك من الأولاد؟ فقلتُ : آلاف! وأردفتُ : كل من تتلمذ عليَّ يوماً فهو عندي كأحد أولادي . شخصان – ربما لا ثالث لهما – الأب والأستاذ يسران غاية السرور حين يتقدم الابن والتلميذ ، بل لا يسوؤهما أن يتقدما ويتجاوزا ، الوالد والأستاذ ، وتلك حالة خاصة فيما أعلم .

تلميذ الأمس « عائض الدوسري » وزميل اليوم في كلية التربية ، ومن لم تنقطع صلته حتى حين ذهب للغرب للدراسة ، باشر الكتابة في وقت مبكر كما عرف الحوار والمشاركة في بعض الفضائيات ، وقد قدَّم لي كتابه « ابن تيمية والآخر » هدية ، ورغب - وهو يعد لطبعة ثانية - أن أقدم له ، بعد أن قدَّم الزميل المفكر الدكتور محمد عمارة بمقدمة حوت (٢٦) صفحة هي دراسة لتجربة شيخ الإسلام بشكل عام واهتماماته المتنوعة .

لقد أحسن الدكتور عمارة بمقدمته الرائعة عن ابن تيمية ، كما أحسن « عائض » فيما تحدث فيه عن شيخ الإسلام ، وهذه سطور كتبتها عن شيخ الإسلام ابن تيمية تبين براءته من الغلو والتكفير الذي ينسبه له خصومه وبعض الغلاة الذين يدعون الانتساب إليه .

إنَّ رجلاً مثل ابن تيمية بعلمه الواسع وموسوعيته ، وعظيم مشروعه الثقافي ، سيظل مشروعاً خصباً للدراسة والقراءة الجديدة ، وفي جوانب عديدة ومتنوعة من جوانب المعرفة الإنسانية .

أ . د . نعمان السامرائي

تقديم فضيلة الشيخ الأديب
الدكتور عائض بن عبد الله القرني

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول اللّه وآله وصحبه ومن والاه ، وبعد :

فقد طَالَعتُ كتاب (ابن تيمية والآخر) لفضيلة الشيخ عائض ابن سعد الدوسري فوجدتُ ما أثلج الصدر ، وشرح الخاطر من حسن تأصيل ، وبراعة تبويب ، وسلامة منهج ، مع الدقة العلمية والتحقيق الظاهر الذي عُرف به أخونا وصديقنا المؤلف ، فهو متمرسُ في الحوار قويٌّ في الحجة ، بارع في الاستدلال .

أما بطل هذا البحث ورمزه فهو الإمام الحجة المجدد الرباني شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله .

وإذا قلت : ابن تيمية حضرت الإمامة ، والتجديد ، والعبقرية ، والريادة العلمية ، والقدوة الربانية .

وهذا الكتاب أحسن ما يُقدم في هذا العصر في مسألة التعامل مع الآخر في عصر التجاذب والتواصل والتصادم والاتفاق والاختلاف ، فهو يُقدم لنا صورة حيَّة بمشاهد ومواقف

ونقولات عن المنهجية الإسلامية في علاقتنا بالآخر من إمام فذ ، ومنظر جهبذ ، وعالم قلَّ أن تجد له نظيراً في حفظه ، وفهمه ، وعدله ، وإنصافه ، وعلمه ، واطلاعه ، وتقواه ، وتجرده ، وغيرته وجهاده .

لقد وُفِّقَ أخونا المؤلف المتقن المتألق في جمال العرض ، وجودة النقل ، وقوة الاستدلال ، فاستحق أن يُقال له ما قاله أبو الطيب في ابن العميد :

قطف الرجالُ القول قبل نباته   وقَطفتَ أنتَ القول لما نَورا

عائض بن عبدالله القرني

الرياض : ٥/٥/١٤٢٨هـ

تقديم المفكر المصري
الأستاذ جمال سلطان

أكثر ما أضر بالحالة السلفية في العالم الإسلامي هو أولويات الكتابة وسوء اختيار المداخل إلى العقل الإسلامي الجديد ، مما أوقع الالتباس لدى قطاعات من التيار الإسلامي نفسه ناهيك عن الالتباس الذي وقع لدى التيارات الفكرية الأخرى في فهم واستيعاب الكثير من الحقائق عن أهل السنة والجماعة والتيار السلفي بشكل عام ، ولذلك يكون من الأهمية بمكان أن تظهر كتابات سلفية جديدة تُحسن اختيار مداخل الحديث ، وتحسن اختيار الأفكار ذات الأولوية وتحسن التعامل مع هواجس العقل الإسلامي الجديد ، وتلقي بالضوء على جوانب من تراثنا العلمي يحتاجها الجيل الإسلامي الجديد أو تغيب عن إدراكه .

لذلك كانت سعادتي كبيرة بمطالعة كتاب الباحث الإسلامي عائض بن سعد الدوسري عن شيخ الإسلام ابن تيمية ، والذي جعل عنوانه « ابن تيمية والآخر » ، والمفارقة المذهلة في الكتاب ليس فقط الذكاء في اختيار الموضوع وحُسْن اختيار المدخل الفكري والعلمي ، وإنما أيضا اختيار المفكر الكبير الدكتور محمد عمارة

لكي يقدم لهذا الكتاب ، حيث كتب مقدمة فكرية من أجمل وأهم ما كتب عن ابن تيمية في الفكر الإسلامي الحديث ، كشف فيها عن عمق عقلانية ابن تيمية ، وهي العقلانية المنبثقة عن عمق وعيه بالوحي الإلهي ، والتي تدرك اكتمال المعرفة بين العقل والنقل ، وكلاهما هبة الخالق لخلقه ، كما كشف عن الاحترام الكبير الذي حظي به ابن تيمية عند المتأخرين بعدما عرفوا فضله ووقفوا على آثاره ، ولخَّص عمارة انبهاره بتراث ابن تيمية في قوله حرفيًا : (ولو أن المشروع التجديدي لابن تيمية قد وجد الدولة والسياسة التي تنهض به ، لتغير وجه العالم الإسلامي ووجهته ، ولاختصرت الأمة من عصور التراجع الحضاري عدة قرون) .

في كتابه الجديد والمهم ، كَشَفَ عائض الدوسري عن لمحات رائعة من سيرة ابن تيمية في تعامله مع خصومه في الفكر أو الرأي ، أو « الآخر » بالتعبير الجديد ، رغم أنه تحفظ على دقة هذا التعبير وفق المعايير الإسلامية ، فبالتوازي مع صلابة ابن تيمية العقدية والفكرية وثقته العظيمة بالله ، وهي التي جعلته يستعصي على التطويع من قِبَلِ السلطة ، مما أدى إلى سجنه أكثر من مرة ، حتى أنه مات في آخر مرة اعتقل فيها ، إلا أنه كان واسع الصدر مع مخالفيه

ووافر الاتزان في موقفه من خصومه ، فعندما شنع عليه غلاة المتصوفة وخدم السلطان ووشوا به وكفروه وفسقوه ، رفض أن يشنع عليهم أو أن يكفرهم ، بل اعتبر موقفهم منه « اجتهادًا » يرجو أن يثابوا عليه حتى ولو أخطئوا ، ويستحضر المؤلف عبارات قالها ابن تيمية وتكتب بماء الذهب من روعة الموقف من المخالف في الرأي مهما تمادى في ظلمه ، حيث يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ : (وأنا في سعة صدر لمن يخالفني ، فإنه وإن تعدى حدود الله فيّ بتكفير أو تفسيق أو افتراء أو عصبية جاهلية ، فأنا لا أتعدَّى حدود اللَّه فيه) . وفي موقف آخر يقول شيخ الإسلام : (فلا أحب أن ينتصر من أحد بسبب كذبه عليَّ أو ظلمه وعدوانه ، فإني قد أحللت كل مسلم ، وأنا أحب الخير لكل المسلمين ، وأريد بكل مؤمن من الخير ما أحبه لنفسي ، والذين كذبوا وظلموا فهم في حِلّ من جهتي) .

كتاب الدوسري جمع الكثير من مواقف ابن تيمية التي تكشف عن معدنه النادر ، فهو شديد التواضع ، قريب من الفقراء والمساكين ، مجاهد صلب ضد الصليبيين والتتار ، عفّ اللسان وعفيف النفس ، لم يزاحم أبدًا على منصب أو قرب من سلطان ، رغم هيبته وانتشار علمه وإقبال الناس عليه ، وعندما اعتقلته السلطة

ظلما بوشاية من خصومه رفض أن يدعو عليهم بل دعا لهم ، واستثمر وجوده في السجن في التأليف والعبادة فأخرج العديد من المجلدات ، حتى أن خصومه حسدوه في سجنه وضيقوا عليه فجعلوا السلطان يحظر عليه الأوراق والأقلام ، فكان يستعمل الفحم في تسريب رسائله إلى تلاميذه ومحبيه ، وعندما دارت الدائرة على خصومه من المتصوفة وبعض القضاة عندما أطيح بالسلطان بيبرس على يد السلطان محمد بن قلاوون الذي تآمر عليه بيبرس من قبل ، أراد ابن قلاوون أن يصفي حساباته مع كل الفقهاء وشيوخ المتصوفة والقضاة الذين ساروا في ركب بيبرس ، فأخرج ابن تيمية من السجن وأكرمه واجتمع به في قصره طالبًا منه فتوى بتكفير خصومه هؤلاء والتصريح بقتلهم ، وذكَّره بما فعلوه فيه وتكفيرهم له ليوغر صدره ويستثمر الموقف لتبرير المذبحة التي ينوي الإقدام عليها ، إلا أن ابن تيمية رفض بروح عالية مطلب السلطان ، وناشده أن يعفو عنهم وأن يكرم نزلهم لأنهم أهل العلم الباقون ، بل قال له كلمته الرائعة : « إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم من العلماء الأفاضل » ، ولم يزل به يسترحمه عليهم حتى أصدر قرارا بالعفو عنهم جميعًا بل إن أشد خصومه وهو الشيخ

البكري الصوفي ، والذي اعتدى عليه بالضرب وهيَّجَ عليه العامة وكَفَّره وفسَّقه وشنَّع عليه ، عندما انقلب عليه السلطان وطلبه للتنكيل به ، لم يجد مكانًا يهرب إليه ، بعد أن ضاقت عليه الدنيا ، سوى بيت ابن تيمية نفسه ، يحميه ويشفع له عند السلطان .

وعندما كَاتَبَ ابن تيمية ملك التتار ليفتدي أسرى بيت المقدس عنده أجابه إلى طلبه غير أنه أخبره بأن هناك بينهم نصارى لا يدخلون في الاتفاق ، فرفض ابن تيمية وطالبه بإطلاق الجميع وكتب له يقول : (بل جميع من معك من اليهود والنصارى هم أهل ذمتنا فإنا نفتكّهم ولا ندع أسيرًا لا من أهل الملة ولا من أهل الذمة) فأطلق ملك التتار الجميع ، وقد سارت بقية الكتاب في بيان هذه الروح الإنسانية الرائعة عند ابن تيمية .

كتاب عائض الدوسري عمل فكري ممتع ورائع ، تجعلنا أمام علم من أعلام الأمة ، لم يظلمه معاصروه فقط ، حتى مات وهو في سجنه يدعو بالرحمة والهداية حتى للسلطان الذي ظلمه ، بل ظلمه كثير من المعاصرين أيضًا ، وإن كان اللَّه تعالى قد حفظ علمه وبارك في تراثه حتى طبق الآفاق ، يرحمه اللَّه .

٢٨ - ٧ - ٢٠٠٧ م **جمال سلطان**



موقف ابن تيمية النظري والعملي - العقدي والأخلاقي
من المخالفين وموقف المخالفين من الآخر

عائض بن سعد الدوسري




بسم الله الرحمن الرحيم
إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات
أولئك هم خير البرية

مقدمة المؤلف

إنَّ الحمد للَّه ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده اللَّه فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله ، صلَّى اللهُ وسلَّم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ، ومَن سلك سبيلَه ، واهتدى بهديه إلى يوم الدِّين ، أمَّا بعد :

فإن ما تمر به الأمة الإسلامية اليوم من ضعف وهوان يدعو ويلحّ على عقلاء الأمة إن يراجعوا الأسباب الحقيقة التي تقف وراء هذا الواقع المرير ، ويبحثوا عن العوامل الأساس التي تعيد لهم قوّتهم وهيبتهم ، وتجمع شملهم ، وتوحِّد صفَّهم ، وتضمّهم في وحدة إسلامية حقيقية تُعيد لهم الصورة المشرقة والذهبية التي كانوا عليها في صدر الإسلام الأول .

وهذه المهمة الإصلاحية الخطيرة هي المهمة الأولى الواجبة على علماء الأمة الأفاضل ، وهم على وجه الخصوص من يقع على عاتقهم أمر إصلاح الأمة وتجديد أمرها في دينها وعلمها ومنهجها وعزتها ومنعتها ووحدتها ، وإن خُذلت الأمة من قِبَلِ

علمائها فليس لكسرها من جبر ، وليس لمصيبتها من دافع ، وليس لمرضها من معالج !

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : (.. من القواعد العظيمة التي هي من جماع الدين تأليف القلوب واجتماع الكلمة وصلاح ذات البين ، فإن الله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ ، ويقول : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ ، ويقول : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ، وأمثال ذلك من النصوص التي تأمر بالجماعة والائتلاف وتنهى عن الفرقة والاختلاف ، وأهل هذا الأصل هم أهل الجماعة ، كما أن الخارجين عنه هم أهل الفرقة)(١) .

ولقد أدرك أعداء الأمة أن هذه الأمة بوحدتها على دينها تُشَكِّل قوة لا يقف في وجهها أحد ، وهم يتوقعون تلك الوحدة ويرونها قريبة ، وهم ينطلقون في إدراكهم هذا من قراءتهم التاريخية الفاحصة التي تخبرهم أن الأمة الإسلامية حينما حققت أسباب الوحدة في عصورها الأولى توحدت بعد الشتات ، وصارت سيدة الدنيا ، ومركز العالم ، وقائدة الناس ، وهادية العالمين .

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨ / ٥١) .

يقول المؤرخ الإنجليزي (أرنولد توينبى) بكل صراحة : (إن الوحدة الإسلامية نائمة ، لكن يجب أن نضع في حسابنا أن النائم قد يستيقظ)[١] .

ويقول (مورو بيرجر) : (إن الخوف من العرب ، واهتمامنا بالأمة العربية ، ليس ناتجاً عن وجود البترول بغزارة عند العرب ، بل بسبب الإسلام . يجب محاربة الإسلام ، للحيلولة دون وحدة العرب ، التي تؤدي إلى قوة العرب ، لأن قوة العرب تتصاحب دائماً مع قوة الإسلام وعزته وانتشاره)[٢] .

ويقول المبشر (لورنس براون) : (إذا اتحد المسلمون في إمبراطورية عربية ، أمكن أن يصبحوا لعنةً على العالم وخطراً ، أو أمكن أن يصبحوا أيضاً نعمة له ، أما إذا بقوا متفرقين ، فإنهم يظلون حينئذ بلا وزن ولا تأثير)[٣] .

فما أحوج الأمة الإسلامية اليوم إلى الوحدة التي تجمعها على الحق ، وتؤلف بين قلوب المسلمين ، وتجعلهم نعمة ومثالاً

---

(١) الإسلام والغرب والمستقبل (ص ٧٣) .

(٢) الفكر الإسلامي وصلته بالاستعمار الغربي (ص ١٩) .

(٣) جذور البلاء (ص ٢٠٢) .

يحتذي به العالم في أخلاقه وسلوكه وإيمانه وقوته ، وما أشد حاجة الأمة العربية والإسلامية إلى البُعد عن كل أسباب الفرقة والتمزق ، التي تشتت قلوبها ، وتزيد من ضعفها وهوانها .

ومن الأسباب التي تُفرق بين أبناء الأمة : اختلافهم فيما بينهم بغير حق ، ووجود بعض الغلاة المتنطعين الذين يكفّرون الناس أو يضللونهم بمجرد مخالفتهم لما عرفوا واعتادوا عليه من أمور الدين .

ومما يؤسف له أن الأمة الإسلامية قد ابتليت في هذا العصر بأناسٍ - هداهم اللّه وردهم للصواب - جعلوا همهم الأول وشغلهم الشاغل تفريق الناس ، وتمزيق أوصال الأمة ، ونبش خلافاتها ، وإعادة منازعاتها جذعة ، يسفهون علماء الأمة ، ويضللون الناس ، بل ويكفرون رموز الأمة ، ثم يتجرؤون على اللّه فيصنفون الناس الذين يدخلون النار والناس الذين يدخلون الجنة .

ولعل قائلاً يقول : كيف نصل للوحدة الإسلامية المرجوة وفي الأمة من يسفّه كبارها ، ويضلل عمومها ، ويكفر علماءها ، ويسلك في ذلك شتى السبل ، وينهج مختلف الوسائل

المشروعة وغير المشروعة ؟

ومن الأمثلة الدالة على ما تعانيه أمتنا الإسلامية ما يلاقيه في وقتنا المعاصر العلماء الأفذاذ الكبار من ظلم وإجحافٍ في حقهم ، بل وصل الأمرُ إلى تضليلهم وتكفيرهم والقطع بأنهم من أهل النار[١] ، وأن هذا يحدثُ جهاراً نهاراً من أناس يسعون - بكل أسف - إلى تمزيق الأمة ، وتشتيت وحدتها ، والتشكيك

---

(١) **أقول** : قبل ما يقارب الثلاث سنوات ، وبالتحديد في تاريخ ١٨/١٢/١٤٢٤هـ كان هناك حوارًا على (قناة المستقلة) الفضائية بلندن ، يتناول (شخصية وتراث شيخ الإسلام ابن تيمية) غير أن المتابعين لأول حلقة من حلقات الحوار صدموا وفوجئوا بأحد ضيفي اللقاء الذي استضافته قناة المستقلة _ بأمر من رئيس جمعية أهل البيت الشيعية د . محمد الموسوي الشيعي - وهو الأستاذ حسن السقاف وهو يعلن على الملأ ودون مواربة أنه يذهب إلى (تكفير ابن تيمية) !! وأنه يعتقد أن هذا الإمام الكبير (لا يستحق دخول الجنة) !!

هذا ما سمعه الناس ورأوه من ضيف المستقلة الأستاذ حسن السقاف-هداه الله- .

وبعدما كان المتابعون ينتظرون تشنيف أسماعهم بسيرة ذاك العلم الكبير من أعلام الأمة وقدواتها ، إذا بالحلقة الأولى تذهب في مناقشة هل هذا الإمام في عداد المسلمين أو أنه من زمرة الكافرين!! وهل يستحق دخول الجنة أو لا!!

أقول : لعل العقلاء الذين سمعوا كلام الأستاذ السقاف في المستقلة رجعت بهم الذاكرة إلى الوراء ، واستحضروا حدثاً مضت عليه قرون متطاولة هزَّ أفئدة العلماء وآلمها ، حين أقدم متهورٌ قد أكل الحسد والغلُّ قلبه ، فأعلن أن كل من أطلق على (ابن تيمية) لقب (شيخ الإسلام) ، فهو كافر!! وما أشبه الليلة بالبارحة!

بعلمائها ، والتحقير من قدرهم ، وسلبهم حقوقهم .

ومن أبرز الذين ظُلموا كثيرًا وتُعُدِّي عليهم بغير حق ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، فقد ابتلي شيخ الإسلام في عصره ببعض الغلاة المتنطعين ، الذين اعتدوا عليه و كفَّروه وآذوه في دينه . ومع ذلك كله ، فإنه لم يقابلهم بالمثل ، ولم يعاملهم بنفس معاملتهم له ، بل كان مستناً في تعامله معهم بالكتاب والسنة .

وذلك المنهج الذي عمل به ابن تيمية مع مخالفيه ، كان نابعا من حبه للخير لجميع الناس ، وحرصه على وحدة المسلمين ، وتغليبه مصلحة الأمة الإسلامية على نفسه وحقوقه الشخصية ، فكان يغفر لهم إساءتهم له ، وكان يعفو عنهم حُبًّا منه للعفو والتسامح ، وطلبًا لوحدة الأمة وجمع كلمتها .

يقول ابن تيمية : (هذا وأنا في سعة صدر لمن يُخالفني ، فإنه وإن تعدَّى حدود اللَّه فيَّ بتكفير ، أو تفسيق ، أو افتراء ، أو عصبية جاهلية ؛ فأنا لا أتعدى حدود اللَّه فيه ، بل أضبط ما أقوله وأفعله وأزنه بميزان العدل ، وأجعله مؤتماً بالكتاب الذي أنزله اللَّه وجعله هدى للناس حاكماً فيما اختلفوا فيه)(١) .

---

(١) مجموع الفتاوى : (٣/ ٢٤٥) .

وقال أيضاً : (فلا أحب أن يُنْتَصر من أحد بسبب كذبه عليّ أو ظلمه وعدوانه ، فإني قد أحللت كلَّ مسلم ، وأنا أحب الخير لكل المسلمين ، وأريد بكل مؤمن من الخير ما أحبه لنفسي ، والذين كذبوا وظلموا فهم في حل من جهتي)(١) .

لكن مما يُؤْسف له أن منهج التسامح الذي سلكه ابن تيمية مع مخالفيه لم يُقنع بعض المتطرفين والغلاة في زمنه وفي زماننا أيضًا ، حيث إنهم استمروا في منهجهم الإقصائي ، وتواصوا على تكفير ابن تيمية بل وعلى تكفير أكثر أهل القبلة !!

ومما يُؤْسف كل غيور على دينه وأمته ، أن هؤلاء الذين يتطاولون على علماء الأمة بالتفسيق والتكفير ، لا يزالون يعملون بجدٍ في شرخ بناء الأمة ، ونشر ثقافة التكفير والغلو فيه ، وفي نفس الوقت يحبون أن يتشبعوا بما لم يُعطو ، فتراهم يظهرون بصورة مغايرة لحقيقتهم ، فيدعون أنهم أهل العقلانية و التسامح والتنوير ، ويتهمون غيرهم بالغلو وينسلون منه!

ومن مسلسل اتهاماتهم المتواصلة بحق ابن تيمية اتهامه زوراً أنه أساس الغلوّ والتكفير ، وأنه المؤسس للتطرف ، وأنه ناشر

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٥٥ - ٥٦) .

ثقافة التكفير والإقصاء ، إلى غير ذلك من التهم الباطلة !!

ومن منطلق الدفاع عن الحقيقة ، والذّبّ عن علماء الأمة الربانيين ، أحببتُ أن أضع بين يدي القارئ الكريم هذه الوريقات المتواضعة لبيان حقيقة موقف ابن تيمية من المخالفين ، نظرياً وعملياً ، ليقف القارئ الكريم بنفسه على حقيقة مذهب الرجل من خلال قوله وفعله(١) .

وفي هذا البحث قدمتُ للقارئ الكريم بعضاً من نصوص المخالفين التي تحكي موقفهم النظري والعملي من (الآخر) ليحكم بنفسه بعد ذلك ، وليرى من الذي ينشر ثقافة التكفير والإقصاء ؟ وكما قيل :

والضِدُّ يُظهر حُسنه الضدُ ... وبِضدها تَتَباين الأشياء

وقد قسمتُ هذا البحث إلى خمسة فصول ، كما يلي :

الفصل الأول : مصطلح الآخر .

الفصل الثاني : في ظِلال سيرة ابن تيمية وشخصيته .

الفصل الثالث : موقف ابن تيمية من تكفير المسلمين .

---

(١) هذا البحث عبارة عن جزء مستل من كتابي : « هكذا تحدث ابن تيمية » ، ورأيت أن أفرد هذا الموضوع في هذا البحث الصغير لأهميته .

الفصل الرابع : سيرة ابن تيمية العملية مع مخالفيه .

الفصل الخامس : موقف الشيعة من المخالفين كأنموذج .

وصدق الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - حينما قال بعد الثناء العاطر على ابن تيمية ، ما نصه : (الواجب على من تلبس بالعلم ، أو كان له عقل أن يتأمل كلام الرجل من تصانيفه المشتهرة ، أو من ألسنة من يوثق به من أهل النقل)[١] .

نسأل اللّه سبحانه وتعالى أن يوفق الجميع إلى ما يحبه ويرضاه ، وأن يجمع كلمة الأمة على الحق ، وأن يوحد قلوبها على كلمة التوحيد الخالص ، وأن يعزها بدينه ، وينصرها بتأييده ونصره ، وأن يعليها بين الأمم ، لتعود كما كانت منبر حقٍ ومصباح هدى .

كتبه

عائض بن سعد الدوسري

المحاضر بجامعة الملك سعود

قسم الدراسات الإسلامية

الرياض ١ ربيع الأول ١٤٢٨هـ

AYEDHI_D@HOTMAIL . COM

---

(١) الرد الوافر (ص٢٤٨) .



الفصل الأول

مصطلح الآخر

« هذا وأنا في سعة صدر لمن يخالفني ، فإنه وإن تعدّى حدود الله فيَّ بتكفيرٍ ، أو تفسيقٍ ، أو افتراءٍ ، أو عصبيةٍ جاهلية فأنا لا أتعدّى حدود الله فيه ، بل أضبط ما أقوله وأفعله وأزنه بميزان العدل ، وأجعله مؤتماً بالكتاب الذي أنزله الله وجعله هدى للنّاس حاكماً فيما اختلفوا فيه » .

ابن تيميّة « مجموع الفتاوى ٣/٢٤٥ »

تمثل الألفاظ والمصطلحات أهمية بالغة الخطورة في كل فن وعلم ؛ لأن هذه الألفاظ والمصطلحات تمثل مفتاحاً للعلوم والمعارف ، فهي أداة للبحث ومفردات للفهم ، يتعاطها العلماء في كل فنّ وعلم ، ففهم أي علم من العلوم مبني على فهم ألفاظه ومصطلحاته ، وفَهْم تلك الألفاظ جزء من المنهج العلمي ، لأن المنهج لا يستقيم إلا إذا قام على مصطلحات دقيقة مفهومة محددة ، تؤدِّي إلى حقائق علمية صادقة ، لأنها تُعَبِّرُ تعبيراً حقيقياً عن العلم الذي تنتمي إليه .

واللغة - بشكل عام - هي وعاء الفكر بما تحمله ألفاظها من معان ومصطلحات ، مما جعل عملية تحديد معاني الألفاظ في غاية الأهمية ، وقد كان من أسباب اللبس والتشويش الفكري دخول مفرداتٍ أجنبية تحمل مفاهيم مختلفة ومختلطة ، تجمع أموراً إيجابية وأخرى سلبية ، مما جعل الناس في حيرة منها والتباس ، مما يحتّم على العلماء وأهل الفكر تحديد معاني هذه الألفاظ خاصة إذا كانت متصلة بالعلوم الشرعية[١] .

---

(١) انظر : مناهج البحث في العقيدة الإسلامية في العصر الحاضر - عبدالرحمن الزنيدي (ص ٥٠٦ - ٥٠٧) .

تبيان معاني الألفاظ المجملة مهمة المفكر والعالم ، بسبب ما تحتويه من معاني مهمّة وخطيرة ، فالعبارات لا قيمة لها دون المعنى ، لأن اللفظة قد تدلُّ على شيء مستقبح في موضع ، وشيء مستحسن في آخر ، ومن هنا جاء البحث في معاني الألفاظ ومدلولاتها تحقيقاً لضبطها وتحديد معانيها[١] .

يقول ابن تيمية : (الألفاظ نوعان : نوع مذكور في كتاب اللّٰه وسنة رسوله وكلام أهل الإجماع ، فهذا يجب اعتبار معناه ، وتعليق الحكم به ، فإن كان المذكور به مدحاً استحق صاحبه المدح ، وإن كان ذماً استحق الذم ، وإن أثبت شيئاً وجب إثباته ، وإن نفى شيئاً وجب نفيه ، لأن كلام اللّٰه حق ، وكلام رسوله حق ، وكلام أهل الإجماع حق .. . وأما الألفاظ التي ليس لها أصل في الشرع فتلك لا يجوز تعليق المدح والذم والإثبات والنفي على معناها ، إلا أن يتبيّن أنه يوافق الشرع)[٢] .

وقد بين العلماء عند مناقشتهم أي رأي أو فكرة ، أن أسباب الخلاف بين العلماء والطوائف ترجع في أصلها إلى استعمال

---

(١) انظر : دلائل الإعجاز – عبدالقاهر الجرجاني (ص ٤٣ – ٤٨) .

(٢) درء تعارض العقل والنقل (١/٢٤١) .

الألفاظ المجملة ، والمعاني المبهمة ، فكان أحدهم يستعمل اللفظ بمعنى ، ويستعمله الآخر بمعنى آخر ، فيدبُّ الخلاف ويحتدم النـزاع ، ولو فصل ما في اللفظ من إجمال وما في المعنى من إبهام ، لاتفقت الكلمة ، ولما حصل ما حصل من خلاف ونزاع وتراشق بالتكفير والتبديع[١] .

يقول الإمام ابن القيم : (أصل بلاء أكثر الناس من جهة الألفاظ المجملة التي تشتمل على حق وباطل ، فيطلقها من يريد حقها ، فينكرها من يريد باطلها ، فيرد عليه من يريد حقها ، وهذا باب إذا تأمله الذكي الفطن رأى منه عجائب ، وخلصه من ورطات تورط فيها أكثر الطوائف)[٢] .

ويقول ابن تيمية : (وما تنازع فيه المتأخرون ، نفياً وإثباتاً ، فليس على أحد بل ولا له أن يوافق أحداً على إثبات لفظ أو نفيه ، حتى يعرف مراده ، فإن أراد حقاً قُبِلَ ، وإن أراد باطلاً رُدّ ، وإن اشتمل كلامه على حقّ وباطل لم يُقبل مطلقاً ولم يُرد جميع

---

(١) انظر : الإمام ابن تيمية وقضية التأويل - د . محمد السيد الجليند (ص ١٣٨) .

(٢) شفاء العليل (٢/٦٦٠) .

معناه ، بل يُوقف اللفظ ويفسر المعنى)[١] .

ومن الألفاظ المجملة كلمة (الآخر) التي أصبح الجميع في هذا العصر يتحدث عنها بحرارة وحماس ، ويفرض لها حقوقاً واحتراماً وتبجيلاً دون أن يُكلف أحد نفسه بتحديد مقصوده : من هو الآخر؟ والذي يتحدث عن كل شيء يتعلق به بالتفصيل الممل ، باستثناء : من هو؟ وما هي ماهيته؟ وما هي ملامحه؟

ولعل هذا الغموض الذي يلف كلمة (الآخر) و الذي دفع بعض الصحفيين إلى التساؤل في حيرة عن : من هو الآخر؟ قائلاً : (يظل سؤال « الآخر » دائمًا مطروحًا وإن كان « مسكوتًا عنه » . فلئن كانت ندواتنا العربية لا تنفك تترى متخذة من موضوع « الحوار مع الآخر » غرضًا محوريًا للنقاش والمناظرة إلا أن تحديد من هو « الآخر » المقصود في هذه الثنائية التي تبدو « بديهية » نادرًا ما يتم التساؤل عنه والاعتناء بضبطه وطرحه موضوعيا)[٢] .

---

(١) التدمرية (ص ٦٥ - ٦٦) ، وانظر أيضاً : درء تعارض العقل والنقل (١/٢٩٦ - ٢٩٩) ، مجموع الفتاوى (٥/٢٩٩) .

(٢) صحيفة الشرق الأوسط : الثلاثاء ٣٠ محرم ١٤٢٧ هـ ٢٨ فبراير ٢٠٠٦ العدد ٩٩٥٤ ، مقال السيد ولد أباه بعنوان (ولكن من هو الآخر؟) .

ومن هنا جاءت أهمية التنبيه أن مصطلح (الآخر) من المصطلحات المُحدثة التي تسرَّبت مؤخرًا إلى المجتمعات الإسلامية والعربية . وهو كأي مصطلحٍ جديد أتى في الأصل من مصادر أجنبيه له فيها خلفية مُعينة ترسَّبت عَبْر التاريخ ، ولا يزال معناه بعد استيراده غير مُحدد بشكل دقيق ، ولذا قد يطلقه البعض بدون قيود لضعف تصوره حول هذا المصطلح ، ويُقَيِّدُه آخر لفهمه الخاص به ، ويحتدم الخلاف والنقاش حول ذلك الإطلاق وذاك التقييد ، والسبب راجعٌ للإجمال الذي في أصل اللفظ .

ومصطلح (الآخر) مصطلح وُلِدَ في الغرب ، وكان وجوده هناك مسبوقًا بوجود مصطلح (الأنا) لأن الغرب يرى أنه هو (الأنا) وهو مركز الكون والحضارات ، وبقية العالم تُسَمَّى (الآخر) فنشأ ذلك المصطلح كدلالة على الاستعلاء الغربي تجاه الآخرين ، وأصبح العالم يُرى من قِبَلِ زاوية (الأنا) الغربية كالآخر!

و (الأنا) الغربية هي نقطة البداية وزاوية الرؤية التي تُقيَّم من خلالها جميع الأشياء ، وهذه الرؤية تأتي انطلاقًا من تمركز

الفكر الغربي على الذات ، والذي أنتج استعلاءً على الآخرين ، وكانت المدوَّنات الأدبية والفلسفيَّة الغربية سجلاً موثقًا وحافلاً سُجِّلَ فيه بكل دقة ملامح الاستعلاء الغربي على (الآخر) الذي يتمثل في الشرقي . ومن هذه النظرة الفلسفية أصبحت العلاقات قائمة على عدم المساواة ، بل على غيرية تامة إلى درجة العداوة .

فأرسطو - مثلاً - يرى أن (الآخر) هو الغريب ، أما أكثر الفلاسفة المتأخرين فيرون أن (الآخر) هو الشخص غير الطبيعي أو العدو ، أو الشيطان ، أو البرابرة ، أو المتوحش ، أو الخطر المميت ، أو الشر ، أو الإرهابي ، أو الأجنبي محل الريبة[(١)] !

ومن فلسفة الغرب لمصطلحيّ (الأنا - الآخر) انطلقت الحملات الاستعمارية تحت مسميات مختلفة ، فتارة : حملات صليبية ، وتارة : حملات ضد البرابرة ، والعامل المشترك هو : أن الآخر ليست له قيمة مساوية للغربي ، فهو بربري أو متوحش بلا قانون أو إيمان ، ولذا فإن الحق في أخذ ما في يديه وما تحت رجليه حقٌّ مشروع .

---

(١) انظر : نشرة الوموند دبلوماتيك ، عدد : كانون الثاني/يناير ٢٠٠٦م ، مقال بعنوان (التلاقي بالغريب ، هذا الحدث الأساسي) للكاتب الغربي ريزارد كابوتشينسكي .

وقد بيّن (فرنسوا شاتليه) أن الغرب قد نظر للشعوب -التي قصد بلادها الأصلية لاستعمارها - بوصفهم وحوش وبرابرة ، فقد عرف الغرب - على حد قوله - أنواعاً من المتوحشين وخاض معهم تجربة ؛ كمتوحشي[(١)] أمريكا وكندا[(٢)] .

وحينما عرفت الموسوعة الغربية L ENCYCLOPEDIE (المتوحش) - في مقال خاصٍ بالتعريف بالمتوحشين - قالت : أنه من الشعوب البربرية التي تعيش بلا قانون ولا شرطة ولا دين . ثم تُعطي مثالاً على ذلك بأمريكا التي ما تزال مأهولة بأمم متوحشة بدون ملك ولا قانون ولا إيمان[(٣)] !

يقول الكاتب الغربي ريزارد كابوتشينسكي : (لم يكن الإنسان الأبيض ، الأوروبي ، يغادر قارّته إلا بهدفٍ واحد : هو الاحتلال . كان يخرج من دياره ليصبح سيّداً على أراضٍ أخرى وللحصول على عبيد أو المتاجرة أو التبشير . غالباً ما كانت تتحوّل رحلاته إلى حمّامات من الدماء ، كما جرى لدى اجتياح كريستوف

---

(١) يقصدون بهم السكان الأصليين الهنود!!

(٢) نظر : أيديولوجيا الغزو- فرنسوا شاتليه (ص ١١) .

(٣) انظر : أيديولوجيا الغزو- فرنسوا شاتليه (ص١٠) .

كولومبوس للأميركيتين ، تبعها حملة المستعمرين البيض الآتين من القارّة العجوز ، ثمّ اجتياح إفريقيا وأستراليا ، إلخ)[١] .

وبناءً على نظرة الغرب لنفسه (كأنا) ونظره لغيره (كآخر) تشكلت سياسته تجاههم بوصفهم إما برابرة يجوز احتلال أرضهم وإهدار جميع حقوقهم الإنسانية ، لأنهم -كما يقولون- لا يحق لهم ملك الأرض لأنهم بلا قانون ولا إيمان ، أو مجرد عبيد خلقهم اللّٰه لخدمة الرجل الأبيض .

ويقول فرنسوا شاتليه : (ما نعرفه من أفريقيا -ممالك الغرب التي تنظم بنفسها توريد العبيد- لا يُسمح بتصنيف الأفارقة في عداد المتوحشين ، ويُقال عن الأفريقي : إنه خُلق ليخدم)[٢] .

ولعل هذه النظرة الدونية هي التي دفعت المجتمع الأبيض في أمريكا (الأنا) إلى النظر إلى إخوانهم السود (الآخر) كعبيد لا قيمة لهم ، أو لعل قيمتهم تقترب من قيمة الحيوانات التي تُستخدم في الزراعة ونحوها !

---

(١) نشرة الوموند دبلوماتيك ، عدد : كانون الثاني/يناير ٢٠٠٦م ، مقال بعنوان (التلاقي بالغريب ، هذا الحدث الأساسي) للكاتب الغربي ريزارد كابوتشينسكي .

(٢) أيديولوجيا الغزو - فرنسوا شاتليه (ص ١١) .

يقول مالكم إكس[١] مخاطباً الأمريكان السود : (من أنتم سوى عبيد سابقين ، أنتم لم تأتوا على « المايفلاور» [٢] ، أنتم أُتي بكم على سفينة عبيد مقيدين بالسلاسل مثل الخيول والبقر)[٣] .

ولم تكن العنصرية - والتي شكلت موقف الغرب تجاه (الآخر) - مقتصرة على التجار الجشعين ، أو رجال السياسة البرغماتيين ، بل كانت - أيضاً - تحظى بدعم فلسفي وتبرير عقلي من أعمدة الفكر الغربيين ، والتي وضعت الأسس الأخلاقية - أو اللا أخلاقية - لهذه القضية ، وقدمت الدعم المنطقي المبرر لموقف (الأنا) من (الآخر) .

يقول منتسكو في كتابه الشهير (روح القوانين) : (إذا كان

(١) أمريكي أسود ، أسلم وكان من جماعة (أمة الإسلام) بزعامة (محمد أليجا) وكانت تلك الجماعة تنتحل إسلاماً محرفاً ، وقد قابلوا عنصرية البيض بعنصرية سوداء ، لكن لما زار مالكم إكس مكة للحج تغيرت أفكاره الخاطئة والمغلوطة عن الإسلام ورأى في الحج مدى تسامح الإسلام وعدم تفريقه بين أبيض وأسود ، وقد لقي احتفاءً كبيراً به من قبل الملك فيصل -رحمه الله- فرجع يبشر بأفكار المساواة بين البيض والسود إلى أن اغتيل -رحمه الله- على يد بعض العنصريين السود .

(٢) MAYFLOWER هي السفينة التي نقلت المهاجرين والحجاج الإنجليز الأوائل من « بلايموث » في إنجلترا إلى شمال فيرجينيا في أمريكا في عام ١٦٢٠م .

(٣) النصوص المحرمة- مالكم إكس (ص٥٤) .

علي أن أدافع عن حقنا في اتخاذ الزنوج ذوي البشرة السوداء عبيداً ، فإنني أقول : إن شعوب أوروبا وقد أفنت سكان أمريكا الأصليين لم يكن أمامها إلا أن تستعبد شعوب إفريقيا ، لكي تستخدمها في استصلاح أرجاء أمريكا الشاسعة ، وما شعوب إفريقيا إلا جماعات سوداء البشرة من أخمص القدم إلى قمة الرأس ، ذات أنوف فطساء إلى درجة يكاد من المستحيل أن ترثى لها ، وحاشا لله ذي الحكمة البالغة أن يكون قد أودع روحاً أو على الأخص روحاً طيبة في جسد حالك السواد)[١] .

ويقول (بندكت أندرسون) : (أمعنوا النظر بالسياسة الحالية إزاء البرابرة التي صاغها الليبرالي الكولومبي « بيدرو فيرمين دو فارجاس » في مطلع القرن التاسع عشر : « إن توسيع زراعتنا يتطلب أسبنة الهنود عندنا . إن كسلهم ، وغباوتهم ، ولا مبالاتهم تجاه الجهود الإنسانية الاعتيادية تدفع المرء إلى الاعتقاد أنهم ينحدرون من عرق منحط)[٢] .

---

(١) العنصرية عند الغرب- بحث للمؤلف غير مطبوع (ص١٥) .

(٢) بحث الجذور الثقافية للقومية - بندكت أندرسون ، ضمن كتاب القومية مرض العصر أم خلاصه ؟ (ص١٦) .

ويقول رينان ما يلي : (جنس واحد يلد السادة والأبطال هو الجنس الأوروبي، فإذا نزلت بهذا الجنس النبيل إلى مستوى الحظائر التي يعمل بها الصينيون والزنوج فإنه يثور، إن الحياة التي يتمرد عليها عمالنا يسعد بها صيني أو فلاح من جنس آخر)(١) .

وبالإضافة إلى المبررات التجارية والسياسية والفلسفية العقلانية أضيف المبرر الديني لتكريس موقف الغرب (الأنا) المجحف من (الآخر) ، فالغرب - وخصوصاً الأمريكي الأبيض - يرى أن اللّٰه كرمه وفضله على خلقه ، وأن اللّٰه كما منح العبرانيين أرض كنعان والقدس ، وطرد منها أهلها الأصليين ، فقد منح أمريكا للأوروبيين المهاجرين إليها وطرد منها سكانها الأصليين ، أعني : الهنود .

يقول جون آدمز : (إن استعمار أمريكا ، بداية تحقيق مشروع العناية الإلهية الذي يعني تدفق النور)(٢) .

ويقول فرنسوا شاتليه : (إن تكوين التعابير التي تعني أمريكا ، أمريكي ، أمرك ، يشكل الدلائل على هذا التصميم الإلهي . إن أمريكا هي في نفس الوقت كنعان الجديدة ، القدس الجديدة . . .

---

(١) العنصرية عند الغرب- بحث للمؤلف غير مطبوع (ص١٢) .

(٢) أيديولوجيا الغزو- فرنسوا شاتليه (ص ٥٣) .

وفيما يخص الأمريكيين ، فهم تحت الحماية الإلهية ، إن شعباً مختاراً ، فقط ، هو الذي يستطيع الإقامة في هذا البلد الموهوب بكرم .. لقد عاملهم –أي الله– مثل العبريين)[١] .

ومن هذه الرؤية الغربية الضيقة والمتعالية تجاه (الآخر) أصبحت الحضارة الغربية هي المحور والمرتكز للحضارات البشرية ، بل لا يوجد حضارة إنسانية غير الحضارة الأوروبية الغربية ، وما عداها فقطيع من الشعوب المتوحشة والبربرية أو العبيد .

ثم إن (الأنا الغربية) ظهرت في أوروبا بقوة ، وانتشرت كالنار في الهشيم، وتبناها ودافع عنها كثير من العلماء والفلاسفة، وهي نظرة قائمة على (مركزية الحضارة الأوربية) بحيث تستبعد كل ما سواها ، فلا حضارة إلا حضارة الغرب .

وهناك العديد من المؤرخين الغربيين الذين ادعوا تأثير جنس بشري له خصائص معينة في صناعة التاريخ، إذ لم يتردد البعض في الزعم بأن الجنس الأوروبي هو أفضل الأجناس على الإطلاق، وأن باقي الأجناس الأخرى أقل قدرة في صناعة التاريخ .

---

(١) أيديولوجيا الغزو– فرنسوا شاتليه (ص ٥١ –٥٢) .

يقول الفرنسي (جوبينو) في رسالة له حول عدم تساوي الأجناس : (إن الآريين وحدهم هم بناء الحضارة والمحافظون عليها)[١] . وكان جوبينو لا يعترف بحضارة سوى الحضارة البيضاء[٢] . ويؤكد ذلك فيقول جوبينو : (أن التفاوت العنصري كاف لتفسير مصائر الشعوب)[٣] .

وذهب كل من (جوزيف آرثر) و (هوستن) إلى أن كل الحضارات الأساسية هي من عمل الآريين[٤] .

وهذه (الأنا) هي التي دَفَعتْ (بلومباخ) إلى تأسيس نظريته الشهيرة التي زعم فيها أن هناك توافقًا بين العبقرية وبين طبيعة العقل الأوربي .

وقال (إفيريت) -أستاذٌ في جامعة هارفارد- : (العرق الأنجلوساكسوني متفوق على نحو لم يسبق له مثيل ، ولا يدانيه أحد)[٥] !

---

(١) تفسير التاريخ - نعمان السامرائي (ص٢٨) .

(٢) انظر : أيديولوجيا الغزو - فرنسوا شاتليه (ص ٨٢) .

(٣) تفسير التاريخ - نعمان السامرائي (ص٢٨) .

(٤) انظر : تفسير التاريخ - نعمان السامرائي (ص٢٨) .

(٥) العنصرية عند الغرب (ص ١٣) .

وهذه (الأنا) الغربية - نفسها - هي التي دَفَعت علماء وفلاسفة الغرب إلى تغليف تفوقهم العنصري المزعوم بغلاف البحث العلمي ، فالنازيون الألمان يرون أن تفوقهم يُفسر بناءً على عرقهم ، وأنهم أفضل العروق وهم السادة ، أما الآخرون فهم العبيد!

وحينما سيطرت فكرة (الأنا) على عقل النازية ، جعل هتلر يقول بتفوق الألمان بالطبيعة على جميع أجناس البشر ، وتقوم فلسفته العنصرية أو (الأنا الألمانية) على فكرة تفوق الجنس الآري الجرماني على باقي الأجناس التي أنجبتها الطبيعة حيث يرى أن الشعب الآري فوق الجميع لذلك يجب الحفاظ على نقاوتها . ولذا فقد منع هتلر زواج الألمان من الأجناس الأخرى ؛ حتى لا يختلط دمهم النقي بدماء غيرهم الفاسدة[١] .

وذهب النازيون إلى أن العروق ليست مختلفة فقط بل متفاوتة ، أفضلها وأرقاها وأنقاها العرق الآري ، الفرع « النورديكي » ، وأدناها وأحطها الأفارقة السود[٢] .

ويبيّن ريزارد كابوتشينسكي إن هذه النظرة العنصرية للآخر هي

---

(١) انظر : تفسير التاريخ (ص٢٨) .

(٢) انظر : تفسير التاريخ (ص٢٨) .

التي دفعت النظام الأبيض الكريه - على حد تعبيره - في جنوب إفريقيا إلى تأسيس علاقاته بالآخرين على مبدأ التمييز العنصري (apartheid) ، ثم يُفسر هذا التصرف - القائم عدم قدرة على التفاهم مع الآخرين والتطبّع بطباعهم ، والرغبة في بناء الأسوار الضخمة وحفر الخنادق العميقة ، للانعزال عن الآخرين - بأنه فشل للكائن البشري في علاقاته[١] .

ثم تتابعت - بعد ذلك - النظريات الغربية لتكريس (الأنا) والبحث عن مسوغات علمية لاستعباد (الآخر) وتبرير شن حروب إبادة وإقصاء في حقه ؛ لأن (الآخر) ليس إلا عبدًا لا قيمة له ، ولعل هذه الأيديولوجية الغربية تُفسر الحوادث العنيفة والدموية في التاريخ الغربي ، فإبادة الهنود الحمر ، والحروب الصليبية ، ومحاكم التفتيش ، والحروب الأخرى تطبيقٌ عملي لمفهوم الغرب للآخر ، ذلك الآخر الذي لا ذنبٌ له إلا أنه صنف غربيًا بالآخر ، مما يعني أنهم مجرد عبد وبربري في نظر الغرب .

يقول فرنسوا شاتليه : (كان على النظام - أي الغربي - إنكار

---

(١) انظر : نشرة الوموند دبلوماتيك ، عدد : كانون الثاني/يناير ٢٠٠٦م ، مقال بعنوان (التلاقي بالغريب ، هذا الحدث الأساسي) للكاتب الغربي ريزارد كابوتشينسكي .

إنسانية العبد ، إنه لا يعرف ، بوصفه حيواناً أو آلة أو كافراً ، كيف يشارك في دائرة السوق التي هو مع ذلك دولابها الحاسم ، يفترض اقتصاد النخاسة عدم تماثل صارم : إنسان = أبيض = حر ، دون الإنسان = غير أبيض = عبد)[١] .

لقد تم رسم ملامح (الآخر) بوضوح في الذهنيَّة الغربية بناءً على تصورات الرجل الأبيض ، فهو الذي حدد المفاهيم ومن ثم رسم العلاقات بدقة مع الآخرين ، فالزاوية الوحيدة التي يُنظر للآخرين من خلالها هي زاوية الغربي ، وعين الأبيض ، وتقييم الأوروبي ، وهذا لا شك -كما بيَّنَا سابقاً- مبني على مفاهيم مسبوقة مبنية على المفهوم الغربي (للأنا) القائمة على التناقض بينها وبين (الآخر) .

يقول الكاتب الغربي ريزارد كابوتشينسكي : (لقد تمّ تحديد مفهوم « الآخر » بحسب وجهة نظر الإنسان الأبيض ، الإنسان الأوروبي)[٢] .

---

(١) أيديولوجيا الغزو - فرنسوا شاتليه (ص ٧١) .

(٢) نشرة الوموند دبلوماتيك ، عدد : كانون الثاني/يناير ٢٠٠٦م ، مقال بعنوان (التلاقي بالغريب ، هذا الحدث الأساسي) للكاتب الغربي ريزارد كابوتشينسكي .

ويقول فرنسوا شاتليه : (ثمة معيار أبيض وفيما بعد آري يكون منقوشاً على سطح الكرة الأرضية ، يكون هذا النقش تناقضياً ، تناقض بين الأبيض وغير الأبيض)[١] .

ويقول فرنسوا شاتليه - أيضاً - : (يقيم توزيع المزايا تقسيماً كونياً للعمل : للأبيض النظام والحرية والمثابرة ، أما الأصفر فهو جسور وضعيف ولكنه عملي ، في حين يكون الزنجي شره وموسيقي وكثير النسل وغير مستقر)[٢] .

لقد لخص بعض الغربيين - قديماً وحديثاً - رؤيتهم وموقفهم من الآخر ، حيث اعتقدوا أن الآخر بكل اختصار هو (الجحيم) الذي لا يرغب أحد في الذهاب أو التعرف إليه أو إقامة علاقات وديَّة أو إنسانية معه . وهذه التصورات المغلوطة والمتجنية تجاه الآخرين هي ما دفعت الكاتب (إدوارد ألبى) في مسرحيته (قصة حديقة الحيوان) إلى تكرار عبارة : (إن الجحيم هو الآخر) على لسان أحد شخصياتها . وكذلك (جون بول سارتر) في مسرحيته (الجلسة السرية) حيث قال

---

(١) أيديولوجيا الغزو - فرنسوا شاتليه (ص ٧٢) .

(٢) أيديولوجيا الغزو - فرنسوا شاتليه (ص ٧٨) .

بكل وضوح : (إن الجحيم هو الغير)[١] .

وقد أرجع ريزارد كابوتشينسكي التصورات المغلوطة عند الرجل الغربي عن (الآخر) إلى جهل الرجل الأوروبي الأبيض بكلّ ما له علاقة بالشعوب الأخرى وثقافتها ، ومنها كوّنوا فكرة خاطئة عنه ، مليئة بالغطرسة والاحتقار[٢] .

إن خلاصة مصطلح (الآخر) - كما قيل سابقًا - أنه مصطلح غربي يدلُّ على السلبية والعدوانية ، في مقابل (الأنا) الغربية الدالة على العلوّ والزهو والتغطرس .

ومع كل تلك المعاني السلبية والعدوانية الكثيرة التي اقترنت في الغرب بتاريخ مصطلح (الآخر) إلا إنك تجد كثيرًا من الكُتّاب العرب - للأسف - ينعون على التراث العربي الإسلامي عدم وجود مصطلح (الآخر) في أدبياته !

ولا أدري أين يكمن الخلل عند هؤلاء ؟ هل يكمن في سطحيتهم ، أم في ببغائيتهم التي تطالب بمطابقة التراث

---

(١) العنصرية عند الغرب (ص١٨) .

(٢) انظر : نشرة الوموند دبلوماتيك ، عدد : كانون الثاني/يناير ٢٠٠٦م ، مقال بعنوان (التلاقي بالغريب ، هذا الحدث الأساسي) للكاتب الغربي ريزارد كابوتشينسكي .

الإسلامي للتراث الغربي في كل شيء حتى في القبائح !

ولذا فلا بد للمتحدث أو الباحث و الكاتب أن يحرص على التعاطي مع المصطلحات الشرعية قدر الطاقة ، أو المصطلحات الواضحة في معانيها وتاريخها ، وإذا ما اضطر لاستخدام مصطلحات مرتبكة أو مشوشة أو مجملة – على حد تعبير ابن تيمية وابن القيم رحمهما اللّه – فلا بد من تفصيل وبيان المعنى المراد ، حتى لا يتبادر للأذهان المعاني الباطلة أو الخاطئة .

الألفاظ التي ليس لها أصل في الشرع فتلك لا يجوز تعليق المدح والذم والإثبات والنفي على معناها ، إلا أن يتبيّن أنه يوافق الشرع .

فالمطالبه بالحقوق الواجبة شرعاً لشيء ما ، لا يكون إلا بعد استقرار معنى هذا الشيء في الأذهان ، حتى يعرف المُخاطب مراد المتحدث ، فإن رتب على مراده حق قُبل ، وإن أراد باطلاً رُدّ ، وإن اشتمل كلامه على حق وباطل لم يُقبل مطلقاً ولم يُرد جميع معناه ، بل يُتوقف في اللفظ ويفسر المعنى ، وهذا باب مهم في الخطابات الثقافية المعاصرة ، حيث تُقام معارك على ألفاظ لو استفصل معناها لزال كثير من اللغط حولها ، وكما ذكر

ابن القيم - رَحِمَهُ اللَّهُ - فإن أصل بلاء أكثر الناس من جهة الألفاظ المجملة التي تشتمل على حق وباطل ، فيطلقها من يريد حقها ، فينكرها من يريد باطلها ، فيرد عليه من يريد حقها .

ولذا لم يرد في الشرع ولا في التراث الإسلامي كلمة (الآخر) بل جاءت مجموعة من المصطلحات المخصوصة والمحددة في معانيها وما يترتب عليها من حقوق وواجبات .

وعموم نظرة التشريع الإسلامي للإنسان تقوم على أن اللَّه كرَّم جميع البشر الذين ينتسبون جميعًا إلى أبٍ واحد وأمٍ واحدة ، وجعل اللَّه مبدأ التكريم يقوم على قدرٍ متساوٍ ، لا يُفَضِّلُ الأبيض على الأسود ، ولا العربي على الأوروبي ، وإنما الفضل لمن يعمل بجدٍ وإخلاصٍ في تحقيق طاعة اللَّه .

ولأجل هذا الاختلاف -الذي ليس منبعه من عنصرية قومية أو قَبَلية ذاتية وإنما منبعه من أمور كسبيَّة - نشأت مصطلحات كثيرة تُجَسِّد بكل جلاء علاقتنا ، مثل مصطلح : (الكفار) و (المجوس) و (المشركين) و (أهل الذمة) و (أهل الكتاب) و (أهل الأهواء والبدع من المسلمين) .

وكلها مصطلحات تُشير إلى قوم مخالفين في الفكر أو العقيدة

إما خارج الدائرة الإسلامية ، وإما داخلها .

فالذين يقعون خارج الدائرة الإسلامية قد رَتَّبَ وَفَصَّلَ لهم التشريع الإسلامي جميع الحقوق والوجبات التي تَلزَمُ غيرهم كحقٍ لهم ، أو تُطلب منهم لغيرهم كواجب عليهم ، وقد وردت نصوص صريحة وصحيحة تحكم العلاقة الإنسانية بين المسلم وغير المسلم ، وتُعظِّمُ جانب رعاية حقوق أهل الذمة وأهل الكتاب ، وكذلك بينت كيفية التعامل مع غيرهم من غير المسلمين ، ولا تجد في غير الإسلام مثل تلك الحقوق المرعية لغير المسلمين .

أما داخل الدائرة الإسلامية فقد بُسطت في فقه الخلاف والاختلاف الإسلامي ، لتباين درجة الاختلاف بُعدًا أو قُربًا ، مع أن الأصل هو الرحمة بالمخالف مع بيان الحق وصون جوهر العقيدة .

ولكون مصطلح (الآخر) من الألفاظ المجملة والتي استخدمت بشكل واسع في هذا العصر ، وعلى وجه الإطلاق ، فلا يُعرف بالتحديد من هو (الآخر) ؟

هل هو الذي يختلف عنا بلغته وقوميته فقط ؟

أم هو المسلم؟

أم هو أهل الذمة وأهل الكتاب ؟

أم هو الوثني ؟

أم الملحد ؟

أم المسلم المخالف المبتدع ؟

أم المسلم المجتهد في الفروع ؟

أم المقصود جميع هؤلاء دون تمييز ؟

فلابُدَّ من الاستفصال والتبيين حتى يُعرف المقصود بالآخر ، لأن بعض الكُتّاب المعاصرين أخذ على عاتقه الكلام عن حقوق (الآخر) دون أن يُحدد ماهيته وحدوده ، وأصبح الباب مشرعًا لفرض جميع الحقوق التي فرضها الإسلام للمسلمين أو لأهل الذمة لتعطى للملحدين والزنادقة ونحوهم ، فحصل الخلاف بسبب ما في خطاب هؤلاء المثقفين من الإجمال والغموض ، والذي قد يكون مقصودًا لذاته !

أما في كتابي هذا (ابن تيمية والآخر !) فإنني استخدمتُ كلمة (الآخر!) هكذا ، لأسباب :

أولاً : أن ابن تيمية - رَحِمَهُ اللهُ - قد تَعَامَلَ مع أصنافٍ مختلفة من

أهل الخلاف داخل وخارج الدائرة الإسلامية ، وَمثّلَ في كثير من جوانب تعامله صورة حية تجسد تعاليم الإسلام في التعامل مع المخالفين ، فإني أقدمه في هذا الكتاب كعالم مسلمٍ تعامل نظريًا وعمليًا مع هؤلاء المخالفين داخل وخارج دائرة الإسلام ، والذين يُسمون بالآخر .

ثانياً : أنني وجدتُ أكثر المستخدمين لكلمة (الآخر) يستخدمونها مطلقة وعامة دون تفصيل ، ويقصدون بها كل المخالفين داخل وخارج دائرة الإسلام ، ومهما كانت درجة الاختلاف . والخطأ الذي وقعوا فيه يكمن في ترتيب الحقوق على لفظٍ مجمل ، فالخلل المنهجي عند هؤلاء لا يتمثل في إطلاق مفهوم (الآخر) بقدر ما يتمثل في ترتيب الحقوق الواحدة على هذا الإطلاق ، وهذا أمر يخالف الشرع والعقل والواقع .

فلو أنهم أطلقوا مفهوم كلمة (الآخر) على كل مخالف ، ثم فصلوا تَرتب الحقوق وفق ما رتبه الشرع ، لأصبح الخلاف لفظي ، وأصبح الكلام يدور حول المصلحة في استخدام هذا اللفظ المجمل الذي لم يرد به الشرع ، ويزول الإشكال حوله

بالبيان والتفصيل .

ثالثاً : أن هذه الكلمة أعني (الآخر) بهذا الإطلاق أصبحت واسعة الانتشار ، كثيرة الاستخدام في الفترة الأخيرة ، وكثرت النداءات الصاخبة والمحتجة مطالبة بحقوقها ، في مقابل اتهام أهل السنة والجماعة وخصوصًا ابن تيمية بانتقاص ومعاداة الآخر . فأردتُ أن أعرض موقف ابن تيمية - من خلال كلامه وفعله - من صنوف المخالفين المتعددة ، والتي تندرج تحت سقف المفهوم المطلق (للآخر) كما يستخدمه كثيرٌ من المثقفين اليوم .

وقد ركزتُ على موقف ابن تيمية من المخالف داخل دائرة الإسلام ، لما فيه من اللبس والظلم الكبير الذي وقع على هذا العلم الشامخ ، مع إشارات يسيرة إلى المخالف خارج الدائرة الإسلامية ، مع العزم - بإذن اللَّه - على بيان ذلك بالتفصيل في الطبعات القادمة .

فـ (الآخر) هنا أعني به : كما يتصوره من يُطلق هذه الكلمة ، أو بعبارة أدق : هم الذين يرون ابن تيمية هو الآخر المخالف لهم عَقَدِيًّا وفِكْرِيًّا ، وبسبب هذا الخلاف قام بعضهم بتبديعه أو تكفيره أو الاعتداء عليه .

رابعاً : بسبب انتشار هذه المصطلح ، وكثرة استخدامه ، والهالة التي لفته ، ترتب على ذلك إلباسه نوع من الإيجابية بل والقدسية في أذهان القراء والمستمعين ، فأردتُ أن أبيِّنَ **أولاً** أصله ومنشؤه ودلالاته ، حتى ينفك الارتباط بينه وبين ما علق به من إيجابية ومدح مع الإطلاق ، **وثانياً** أقدم أقوال وأفعال ابن تيمية تجاه من يخالفه ، ليقارن القارئ بين الموقفين ، موقف ابن تيمية من (الآخر) وموقف الغرب وغيرهم منه .

وعلى أي حال ، فسيجد - القارئ الكريم - في هذا الكتاب كيف تعامل ابن تيمية مع هؤلاء المخالفين ، وكيف تعامل مع من يخالفه في بعض أمور العقيدة أو الأصول ، وهل وصفهم بالآخر على مقاييس ومفاهيم الغرب ؟ أم اعتبرهم مسلمين قد انحرفوا في هذه المسائل واجتهدوا ، وهم متفاوتون في اجتهاداتهم بين قريب و بعيد ، والله يغفر لمن طلب الحق منهم وأَخْطَأَه .

❁ ❁ ❁ ❁



الفصل الثاني
في ظلال سيرة ابن تيمية وشخصيته

«فلا أُحبُّ أن يُنتصر من أحدٍ بسبب كذبه عليّ أو ظلمه وعدوانه فإني قد أحللت كل مسلم، وأنا أُحبُّ الخير لكل المسلمين وأُريد بكلّ مؤمن من الخير ما أُحبّه لنفسي والّذين كذبوا وظلموا فهم في حلٍّ من جهتي ..».

ابن تيمية «مجموع الفتاوى» (٢٨/٥٥-٥٦)

من يَطَّلع على سيرة ابن تيمية[١] يعلم أن هذا الرجل نسيج وحده ، وأنه منذ نعومة أظفاره وهو يحمل نفساً عالية ، وهمة جبارة ، وعقلية فذة ، انصهرت جميعها في بوتقة واحدة ، ووجهت نحو خدمة هَمّ أمته الإسلامية .

فمنذ وقعت عينه وهو صغير على آثار انهيار الأمة وتشتتها ، وعايش البلاء العظيم الذي حلَّ بها ، وسمع من معاصريه أخبار زحف جيوش التتار على الخلافة ، وتدمير حواضرها ، وسحق عاصمتها ، وتناوش جيوش الصليب لأطرافها ، منذ تلك اللحظة

---

(١) **أقول** : سيرة الإمام ابن تيمية –رحمه الله تعالى– مشهورة ومعروفة ، وقد ألفت فيها الكتب والمجلدات ، وبُسطت لها الصفحات . وليس هذا الفصل مخصصاً لعرضها بالبيان والتفصيل ، وإنما المقصود عرض لمحات ونفحات من سيرته وشخصيته ، وشيء من منهجه ، ليقف القارئ على جوانب عظمته وإنصافه وموضوعيته رحمه الله ، ومن أراد الزيادة فليراجع الكتب المختصة التي بسطت ترجمته ، ومن الأمثلة : كتاب العقود الدرية ، والأعلام العلية ، وما صدر مؤخّرًا وهو من أجمع الكتب لسيرة ابن تيمية ، وهو كتاب الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون – محمد عزير شمس و علي العمران ، دار عالم الفوائد ، مكة المكرمة .

ورحم الله مؤرخ الإسلام الإمام الذهبي حينما قال وهو يتحدث عن ابن تيمية : (هو أكبر من أن ينبه مثلي على نعوته ، فلو حلفت بين الركن والمقام لحلفت أني ما رأيت بعيني مثله) . الشهادة الزكية (ص ٤٣) . وانظر : ذيل الطبقات (٤/٤٩٧) .

وهو يحمل في قلبه الصغير هَمّاً يؤرقه ، وحزناً يلازمه ، وظل يفكر في سبيل خروج أمته من هذا النفق المظلم ، وهذه الحفرة السحيقة التي وقعت فيها بسبب العقائد الخرافية ، والأوهام الباطلة ، والخلافات الطائفية ، والمشاحنات المذهبية ، التي فرقت الأمة وشتتتها ، وجعلتها نهباً للأعداء في كل مكان .

وكان منذ صغره وهو يتقد ذكاءً وفطنة وألمعية ، فجعل همته في الإمساك بحبل اللّٰه المتين ، كتاب اللّٰه وسنة نبيه صلى اللّٰه عليه وآله وسلم ، فجعل شغله الشاغل العلم الشرعي ، إذ هو المنزل الأول والأساس الثابت لانطلاق السائرين في منازل صيانة الأمة وإصلاحها ، وهو المدرج الأول للسالكين في تجديد أمر هذه الأمة .

قال الإمام الحافظ البزار : (ولم يزل منذ أبان صغره مستغرق الأوقات في الجهد والاجتهاد ، وختم القرآن صغيراً ، ثم اشتغل بحفظ الحديث والفقه والعربية ، حتى برع في ذلك ، مع ملازمة مجالس الذكر وسماع الأحاديث والآثار ، ولقد سمع غير كتاب على غير شيخ من ذوي الروايات الصحيحة العالية .

أما دواوين الإسلام الكبار كمسند أحمد ، وصحيح البخاري ،

ومسلم ، وجامع الترمذي ، وسنن أبي داود السجستاني ، والنسائي ، وابن ماجة ، والدارقطني ، فإنه -رحمه الله ورضي عنهم وعنه- سمع كل واحد منها عدة مرات ، وأول كتاب حفظه في الحديث الجمع بين الصحيحين للإمام الحميدي ، وقلَّ كتاب من فنون العلم إلا وقف عليه)[1] .

فكان رحمه الله بعد ذلك آية من آيات الله في الحفظ والعلم ، حتى قال العلماء كالذهبي وغيره : الحديث الذي لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث . دلالة على سعة حفظه ، وعظيم علمه ، وصار علامة بارزة بين العلماء على إتقان كتاب الله وعلومه ، وحفظ السنة وعلومها ، فصار نادرة زمانه ، وجوهرة عصره في علوم الشريعة .

قال الإمام الحافظ المزي : (ما رأيت أحداً أعلم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، ولا أتبع لهما منه)[2] .

---

(١) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية- الحافظ عمر علي البزار ، تحقيق : العلامة زهير الشاويش (ص ١٩) الطبعة الرابعة ١٤٢٣هـ ، المكتب الإسلامي ، بيروت .

(٢) الرد الوافر- تحقيق : العلامة زهير الشاويش (ص٢٣٠) الطبعة الثالثة ١٤١١هـ ، المكتب الإسلامي ، بيروت . العقود الدرية (ص٧) .

ولم يكن رَحِمَهُ اللَّهُ عالماً سلبياً ، كسولاً أو خائفاً أو منزوياً في زوايا دور العبادة ، بل كان باذلاً ماله ووقته وجهده في سبيل اللَّه وفي سبيل نصرة دين اللَّه ، وفي سبيل خدمة عباد اللَّه ، لا ينثني ولا يتوانى ، فلا يقعده كلام الخصوم وطعنهم فيه وتهويشهم عليه ، ولا لمز وسخرية وخذلان الأصحاب ، كما لا يزيد من نشاطه مدح المقربين أو أصحاب الجاه ، ولا يلجمه عن قول الحق رغبة أو رهبة من سلطان أو غيره .

قال عماد الدين الواسطي : (إن اللَّه تعالى قد رحم هذه الأمة بإقامة رجل قوي الهمة ، ضعيف التركيب ، قد فرق نفسه وهمّه في مصالح العالم وإصلاح فسادهم ، والقيام بمهناتهم ، وحوائجهم ، ضمن ما هو قائم بصدِّ البدع والضلالات وتحصيل مواد العلم النبوي الذي يصلح به فساد العالم ويردهم إلى الدين الأول العتيق جهد إمكانه)[١] .

وكان مع مكانته العظيمة ، وقدره الشريف ، وخضوع السلاطين له ، وكثرة أتباعه ، وقوة أنصاره ، وتعاطف العامة معه ونصرتهم له ؛ في غاية التواضع وغاية البساطة مع عوام الناس ، لا

---

(١) العقود الدرية (ص٣١٩) .

يرى لنفسه فضلاً على أحد ، بل كان يجلس مع سائر الناس كأنه واحد منهم ، حتى لما كان في سجنه ، ما كان يتأفف من مجالسة أصحاب الذنوب والجرائم لنصحهم وإرشادهم وتعليمهم أمور دينهم ، بل كان يرى ذلك واجباً عليه ، زكاة لعلمه ، وتزكية لنفسه .

قال تلميذه الحافظ البزار : (وأما تواضعه فما رأيت ولا سمعت بأحد من أهل عصره مثله في ذلك ، كان يتواضع للكبير والصغير ، والجليل والحقير ، والغني الصالح والفقير ، وكان يدني الفقير الصالح ويكرمه ويؤنسه ويباسطه بحديثه المستحلى زيادة على مثله من الأغنياء ، حتى إنه ربما خَدَمَه بنفسه وأعانه بحمل حاجته جبراً لقلبه ، وتقرباً بذلك إلي ربه)[١] .

وقال الحافظ البزار - أيضاً- حاكياً تجربته الشخصية مع شيخه ابن تيمية : (وأظهر لي من حُسْنِ الأخلاق والمبالغة في التواضع ، بحيث أنه كان إذا خرجنا من منزله بقصد القراءة يحمل هو بنفسه النسخة ، ولا يدع أحداً منا يحملها عنه ، وكنتُ أعتذرُ إليه من ذلك خوفاً من سوء الأدب ، فيقول : لو

---

(١) الأعلام العلية (ص٤٨) .

حملتُه على رأسي لكان ينبغي ، ألا أحمل ما فيه كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟)[١] .

وكان رحمه الله رحيماً بالمسلمين ، شفيقاً عطوفاً عليهم ، يتلمس حاجاتهم ، ويقضي أمورهم ، ولا يهنأ له بال وهو يعلم أن أحدهم في ضائقة أو وقع له مكروه ، بل طالت رحمته أهل ذمة المسلمين ، الذين لهم في الإسلام ذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم .

قال ابن تيمية في رسالة بعثها إلى (سرجون) ملك قبرص يحثه فيها على إطلاق سراح المأسورين من المسلمين : (قد عرف النصارى كلهم أني لما خاطبت التتار في إطلاق الأسرى ؛ وأطلقهم غازان وقطلوشاه ، وخاطبت مولاي فيهم فسمح بإطلاق المسلمين ، قال لي : لكن معنا نصارى أخذناهم من القدس فهؤلاء لا يطلقون . فقلت له : بل جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا فإنا نَفْتَكُّهم ، ولا ندع أسيراً لا من أهل الملة ولا من أهل الذمة . وأطلقنا من شاء الله ،

---

(١) الأعلام العلية (ص٤٩) .

فهذا عملنا وإحساننا والجزاء على اللَّه)(١) .

أما زهده وعبادته وورعه ، فالكلمات والحروف قاصرة عن بيان ذلك ، لاشتهار حاله ، وظهوره للخاصة والعامة ، فقد كان رباني العبادة ، قريب القلب من ربه ، سريع الدمعة رَحِمَهُ اللَّهُ ، له جلد عجيب على العبادة ، قلَّ أن يطيقه غيره .

قال الحافظ البزار : (أما تعبده - رضي اللَّه عنه - فإنه قل أن سمع بمثله ، لأنه كان قد قطع جل وقته وزمانه فيه ، حتى إنه لم يجعل لنفسه شاغلة تشغله عن اللَّه تعالى ما يُرادُ له لا من أهل ولا من مال .

وكان في ليله متفرداً عن الناس كلهم ، خالياً بربه عز وجل ، ضارعاً مواظبا على تلاوة القرآن العظيم ، مكرراً لأنواع التعبّدات الليلية والنهارية ، وكان إذا ذهب الليل وحضر مع الناس بدأ بصلاة الفجر يأتي بسنتها قبل إتيانه إليهم ، وكان إذا أَحرم بالصلاة تكاد تنخلع القلوب لهيبة إتيانه بتكبيرة الإحرام)(٢) .

ومع علمه وجهاده وورعه وزهده وتقواه ، فإنه - رَحِمَهُ اللَّهُ - كان

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٦١٧) .

(٢) الأعلام العلية (ص ٣٥) .

مجتهداً باذلاً نفسه لخدمة أمته ، معرضاً نفسه للأخطار في سبيل ربه ، ثم في سبيل نهضة أمته التي طال رقادها بسبب البدع والمحدثات التي خيمت على عقول كثير من الأمة .

وما كان - رَحِمَهُ اللَّهُ - محباً للشهرة ، ولا راغباً في التميز بالشواذ والغرائب ، بل كان همه وهدفه الحق أينما كان ، ومهما كان ثمنه .

وبسبب ذلك ، عارضه أهل التقليد ، وكَفَّرَه أهل الجهل ، وبغى عليه أهل الحيف ، وهو صابر لا يتزعزع كالجبل الأشم ، لأنه ما قال شيئاً وما اعتقد أمراً بالتشهي أو بالهوى ، بل كان يعتقد ما يراه يقيناً وحقاً ، دله وهداه إليه الدليل النقلي الصحيح ، والعقلي الصريح .

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ : (المسائل التي أُنكرت عليه ما كان يقولها بالتشهي)[1] .

وقال الحافظ البزار : (إنه رضي اللّه عنه ليس له مصنف ولا نص في مسألة ولا فتوى إلا وقد اختار فيه ما رجحه الدليل النقلي والعقلي على غيره ، وتحرى قول الحق المحض ، فبرهن عليه

(١) الرد الوافر (ص٢٤٧) ، الشهادة الزكية (ص٧٣) .

بالبراهين القاطعة الواضحة الظاهرة ، بحيث إذا سمع ذلك ذو الفطرة السليمة يثلج قلبه بها ، ويجزم بأنها الحق المبين .

وتراه في جميع مؤلفاته إذا صح الحديث عنده يأخذ به ويعمل بمقتضاه ، ويقدمه على قول كل قائل من عالم ومجتهد ، وإذا نظر المنصف إليه بعين العدل يراه واقفاً مع الكتاب والسنة ، لا يميله عنهما قول أحد كائناً من كان ، ولا يراقب في الأخذ بعلومهما أحداً ، ولا يخاف في ذلك أميراً ، ولا سلطاناً ، ولا سوطاً ، ولا سيفاً ولا يرجع عنهما لقول أحد وهو متمسك بالعروة الوثقى)[١] .

وابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما كان تأخذه في الله لومة لائم ، ولا يأخذ بالتقيَّة خيفة من الناس على مصالحه ومدخراته الشخصية ، فإنه كان يقول بالحق الذي آمن به ، ولا يتزعزع ولا يداهن أحداً ، ولو اجتمع الناس كلهم لحربه ، ولو سلطوا السلاطين عليه ، و كتبوا في ذمه التقارير الكيدية ، ومكروا به ، فإنه ثابت الجنان ، ناطق بالحق .

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ : (ولن يخاف الرجل غير الله إلا لمرض في قلبه)[٢] .

---

(١) الأعلام العلية (ص ٧١) .

(٢) العقود الدرية (ص١٥٢) .

وقال ابن فضل اللّه العمري : (وكان ابن تيمية لا تأخذه في الحق لومة لائم ، وليس عنده مداهنة ، وكان مادحه وذامه في الحق عنده سواء)[١] .

ومما زاد غيظ خصومه عليه ، ما كانوا يقترفونه من مداهنة السلاطين على حساب الحق ، فيجاملونهم على حساب دينهم ، ويعاونوهم على ظلم عامة الناس تقرباً لهم وتودداً إليهم ، وفي المقابل كان شيخ الإسلام صادحاً بالحق ، ناطقاً بالصدق ، محامياً عن حقوق فقراء الخلق ، مدافعاً عن أرزاقهم ، دافعاً الظلم عنهم ، مفتشاً عن الفقير المحتاج ، باذلاً لقمته إلى فم المساكين!

قال الحافظ البزار : (ولا زاحم في طلب الرئاسات ، ولا رئي ساعياً في تحصيل المباحات ، مع أن الملوك والأمراء والتجار والكبراء كانوا طوع أمره ، خاضعين لقوله وفعله ، وادّين أن يتقربوا إلى قلبه مهما أمكنهم ، مظهرين لإجلاله ، أو أن يؤهل كلا منهم في بذل ماله)[٢] .

في المقابل كان حال مبغضيه كما يقول الحافظ البزار : (سبب

(١) الشهادة الزكية (ص٣٣) .

(٢) الأعلام العالية (ص ٤٥) .

عداوتهم له أن مقصودهم الأكبر طلبُ الجاهِ والرئاسة ، وإقبال الخلق ، ورأوه قد رقاه اللّٰه إلى ذروة السنام من ذلك ما أوقع له في قلوب الخاصة والعامة من المواهب التي منحه بها ، وهم عنها بمعزل ، فنصبوا عداوته ، وامتلأت قلوبهم بمحاسدته)[١] .

ولأنهم يعلمون أن العامة والخاصة تحبه ، فقد عمدوا إلى الكذب عليه ، واختلاق الأباطيل على لسانه ، ولبس الحق بالباطل ، واستعداء أهل الخرافات عليه ، ومن ناصرهم من الأمراء . مع أنهم يعلمون في قرارة أنفسهم أنه عالم مجتهد ، آخذٌ بالدليل العقلي والشرعي ، لا يقول بهوى ، و لا ينطلق من تشهي ، ولا يكتم حقاً اعتقده .

قال ابن تيمية : (وما كتبت شيئاً من هذا ليكتم عن أحد ولو كان مبغضاً)[٢] . وقال أيضًا : (إنه ليقف خاطري في المسألة والشيء أو الحالة التي تشكل عليَّ ، فأستغفر اللّٰه تعالى ألف مرة ، أو أكثر أو أقل ، حتى ينشرح الصدر وينحلّ إشكال ما أشكل)[٣] .

---

(١) الأعلام العلية (ص٦٩) .

(٢) العقود الدرية (ص ٣٨٣) .

(٣) العقود الدرية (ص ٥) .

ومع كل ذلك لم يرتدع أهل البغي عن بغيهم وظلمهم وافترائهم على ابن تيمية ، بل حشدوا رعاع الناس ، من أهل الخرافات والأهواء ضده ، وخاصة من يتاجرون بمراقد ومقابر الأموات ، ويجنون من العامة والبسطاء الأموال الكثيرة ، فاستمالوا الأمراء الذين يعظمون الخرافة ، ويعمرون المقابر ويخربون العمران ، وكذبوا على ابن تيمية عند بقية الناس ، وألبوا السلطان عليه ، حسداً من عند أنفسهم .

حَسَدُوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه   فالقوم أعداء لـه وخصومُ
كضرائر الحسناء قلن لوجهها   حسدًا وبغيا : إنه لدميمُ

ثم تسببوا في سجنه مرات وكرات ، وهم لا يرضون إلا بقتله بعد أن كفروه ، وأهدر بعضهم دمه ، فسجن مرات و مرات ، حتى جاء سجنه الأخير الذي مات فيه ، فأرادوا أن يمعنوا في إيذائه وهو الأسير فقاموا بمنعه من الكتابة ، ليوقفوا كلمة الحق حيث صادروا منه أقلامه و كتبه ، ووضعوه في زنزانة مظلمة ، أضرت ببصره ، و كانت مصادرة الأوراق والأقلام أشد شيء على نفس هذا العالم الكبير ، فحرموه من كل شيء حتى من كتابة الكلمة ، والحرف الواحد!! هكذا هم أعداء كلمة الحق الحرة دائماً في كل زمان ومكان!

قال ابن عبدالهادي : (فلما كان قبل وفاته بأشهر ورد مرسوم السلطان بإخراج ما عنده كله ، ولم يبق عنده كتاب ولا ورقة ولا دواة ولا قلم ، وكان بعد ذلك إذا كتب ورقة إلى بعض أصحابه يكتبها بفحم ، وقد رأيت أوراقا عدة بعثها إلى أصحابه وبعضها مكتوب بفحم)[١] .

ومع ما كان فيه رَحِمَهُ اللَّهُ من ضيق وضنك ، فقد كان لا يفتر عن التحدث بنعم اللّه عليه . وكان يكتب لأصحابه وتلاميذه بحمد اللّه وشكره والثناء عليه . ومن ذلك آخر رسالة كتبها ابن تيمية قبل وفاته بنحو شهر ونصف ، كتبها بالفحم لما أخرجوا عنه الأقلام والأوراق ، فاضطر لغسل رسائل تلاميذه التي كانت ترسل له من قِبلهم ، ثم الكتابة عليه مرة أخرى .

يقول في رسالته تلك : (ونحن ولله الحمد والشكر في نعم عظيمة تتزايد كل يوم ، ويجدد اللّه تعالى من نعمه نعماً أخرى ، وخروج الكتب كان من أعظم النعم ، فإني كنت حريصاً على خروج شيء منها لتقفوا عليه ، وهم كرهوا خروج (الإخنائية) - أي كتابه الذي رد فيه على الإخنائي الصوفي- فاستعملهم اللّه

---

(١) العقود الدرية (ص ٣٧٩- ٣٨٠) .

تعالى في إخراج الجميع ، وإلزام المنازعين بالوقوف عليه ، وبهذا يظهر ما أرسل اللّٰه به رسوله من الهدى ودين الحق .

فإن هذه المسائل كانت خفية على أكثر الناس ، فإذا ظهرت : فمن كان قصده الحق هداه اللّٰه ، ومن كان قصده الباطل قامت عليه حجة اللّٰه)[١] .

ثم قال : (والأوراق التي فيها جواباتكم غُسلت ، وأنا طيب وعيناي طيبتان أطيب ما كانتا ، ونحن في نعم عظيمة لا تحصى ولا تعد والحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، كل ما يقضيه اللّٰه تعالى فيه الخير والرحمة والحكمة إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو القوي العزيز العليم الحكيم ولا يدخل على أحد ضرر إلا من ذنوبه ما أصابك من حسنة فمن اللّٰه وما أصابك من سيئة فمن نفسك فالعبد عليه أن يشكر اللّٰه ويحمده دائماً على كل حال ، ويستغفر من ذنوبه فالشكر يوجب المزيد من النعم ، والاستغفار يدفع النقم ، ولا يقضي اللّٰه للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له ، إن أصابته سراء شكر وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له)[٢] .

---

(١) العقود الدرية (ص ٣٨٢- ٣٨٣) .

(٢) العقود الدرية (ص ٣٨٢- ٣٨٣) .

قال ابن عبدالهادي معلقاً على هذه الرسالة : (وهذه الورقة كتبها الشيخ وأرسلها بعد خروج الكتب من عنده بأكثر من ثلاثة أشهر في شهر شوال قبل وفاته بنحو شهر ونصف ، ولما أخرج ما عنده من الكتب والأوراق .. أقبل الشيخ بعد إخراجها على العبادة والتلاوة والتذكر والتهجد حتى أتاه اليقين ، وختم القرآن مدة إقامته بالقلعة ثمانين أو إحدى وثمانين ختمة انتهى في آخر ختمة إلى آخر اقتربت الساعة : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ * فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾)[1] .

وهكذا أراد خصومه أن يحبسوا كلمته الحرة الصادقة حتى لا تصل للناس فيتحرروا من سلطان الخرافة ، وقيود الأوهام ، وأغلال الهوى ، ووصل بهم الأمر إلى انتزاع الأوراق والأقلام منه . كل ذلك خوفاً ورعباً من كلماته الناطقة بالحق واليقين!

لكنَّ مرادهم خاب وخسر ، فهذه هي كلمات الإمام ابن تيمية تملأ العالم كله ، وهذه كتبه ولله الحمد تطبع وتوزع في كل مكان والناس مقبلة برغبة عارمة على كتبه وكلماته وفي كل فن وعلم .

وهنا أتذكر ما قاله أحد العلماء الأفاضل في زمن ابن تيمية ، حينما

---

(١) العقود الدرية (ص ٣٨٤) .

كتب رسالة إلى تلاميذ شيخ الإسلام بعد وفاته - رَحِمَهُ اللَّهُ - يوصيهم بكتب الشيخ ، ويحثهم على نشر علمه ، ويطيب خواطرهم بأن المستقبل للحق بإذن الله .

يقول أحمد بن مري الحنبلي في رسالته : (والله إن شاء الله ليقيمن الله سبحانه لنصر هذا الكلام ، ونشره وتدوينه وتفهمه ، واستخراج مقاصده واستحسان عجائبه وغرائبه رجالاً هم إلى الآن في أصلاب آبائهم ، وهذه هي سنَّة اللَّه الجارية في عباده وبلاده)[١] .

فتأمل أخي القارئ الكريم كيف ظهر أمر شيخ الإسلام ابن تيمية وطارت كتبه في الآفاق ، ووصلت كلمته إلى أقاصي المشرق والمغرب ، ونال مئات من الباحثين الدرجات العلمية في دراسة علمه في شتى الفنون ، وكتبت فيه آلاف الكتب ، وأصبح اسمه على كل لسان ، وفي المقابل أمسى كثير من أعدائه لا يذكرون بأسمائهم ، وإذا ذكروا فإنما يذكرون لاقترانهم بحوادث تعرض لها ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ ، فلله الأمر من قبلُ ومن بعد .

❖ ❖ ❖ ❖

---

(١) الوصية- ابن مري الحنبلي ، تحقيق : فهد بن معقد العتيبي (ص ١٣٩- ١٤٠) الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ ، دار بلنسية- الرياض

الفصل الثالث

موقف ابن تيمية من تكفير المسلمين

من عيوب أهل البدع تكفير بعضهم بعضًا، ومن ممادح أهل العلم أنهم يُخطّئون ولا يُكفّرون.

ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (٢٥١/٥)

تمهيد

من المسائل المهمَّة والخطيرة والتي كثيراً ما يثيرها خصوم الدعوة السلفية عموماً وابن تيمية خصوصاً : (مسألة التكفير) . حيث كتبوا بهذا الصدد الكثير من الكتب ، لكن مما يؤسف له أنهم كثيراً ما يحيفون في حكمهم في هذه المسألة بالذات ، ويتهمون ابن تيمية بشكل خاص بأنه مُنَظِّرُ التكفير ، ومُؤَسِّسُ الإقصاء !

ومن يتأمل جوهر مذهب ابن تيمية يعلم علماً يقينياً أنه بريء مما يتهمونه به ، وأنه كذلك بريء من التفريط والإفراط ، ولبيان هذه المسألة بشكل واضح لا بد من توضيح بعض الأمور المهمة في هذا الموضوع ، ولذا سينقسم حديثنا إلى مبحثين :

الأول : مقدمات في مسألة التكفير

الثاني : موقف ابن تيمية من التكفير

المبحث الأول

مقدمات في مسألة التكفير

قبل الحديث عن مسألة التكفير وموقف شيخ الإسلام ابن تيمية - رَحِمَهُ اللَّهُ - منها ، أود أن أضع بين يدي القارئ الكريم بعض المقدمات والقواعد المنهجية التي أرى أنها ضرورية في معالجة هذه المسألة ، حتى لا نهرب من إفراطٍ فيها إلى تفريط ، والفضيلة هي الوسط العدل الذي يقع بين رذيلتين ، وهذا الوسط هو حقيقة روح الإسلام ومعدن الشريعة التي فصلت وبيَّنت هذه المسألة ، وسار على ذلك السلف الصالح رضوان اللَّه عليهم .

وهذه مقدمات مهمة في مسألة التكفير :

(١) التكفير موجود في كل دين وفي كل مذهب وفي كل فكرة ودين ليس فيه أصول يكفر من ينكرها ليس بدين ، وهذا أمر تتفق عليه جميع الديانات السماوية كالإسلام واليهودية والنصرانية ، بل إن الأيديولوجيات الوضعيّة كالشيوعية والعلمانية وغيرها يكون تكفيرها بإخراج من لم يؤمن بأصولها عن دائرتها[(١)] .

---

(١) أقول : انظر تكرماً الفصل الخامس من هذا البحث وهو بعنوان : (موقف الشيعة من المخالفين كأنموذج) .

(٢) التكفير حكم شرعي لا يُنكر ، فهو من أحكام اللّٰه و أحكام رسوله صلى اللّٰه عليه وآله وسلم ، وإنما الإنكار على من توسَّع وغلا وأفرط فيه ، أو كَفَّر مسلماً .

(٣) كل طائفة إسلامية قد تقرر عندها مبدأ التكفير ، لكن أهل السنة والجماعة هم الوسط في هذا الباب ، وهم أضبط وأعدل وأقسط الناس فيه ، ومنهجهم في ذلك معلوم منضبط .

(٤) أن عدم التكفير مطلقاً ليس مفخرة ولا منقبة ؛ لأمرين : أن هذا منافٍ للواقع وتكذيب للوقائع ، ثم هو يناقض فكرة الإيمان بفكرة محددة لها أصول ثابتة .

(٥) لا توجد طائفة أو فرقة أو دين إلا ويمارس فيه الإقصاء للمخالف . وأعدل ، وأضبط ، وأرحم الخلق في تعاملهم مع المخالفين هم أهل السنة والجماعة .

(٦) عقيدة أهل السنة والجماعة منهج ومبدأ وليست أشخاصاً وهي الإسلام بنقائه وصفائه ، وكما أن حال أفراد المسلمين اليوم ليسوا بحجة على الإسلام ، فكذلك الحال بالنسبة لأفراد أهل السنة ، فالحجة في منهجهم وأصولهم لا بأفرادهم .

(٧) أن الواقع والتاريخ والنصوص تدل وتثبت أن أهل السنة

والجماعة هم ضحية التكفير والعنف والإقصاء من قبل الآخرين الذين يوصفون بالعقلانية والتنوير والتسامح . فلقد كُفِّر الإمام أحمد واستحل دمه ، وعُذب وضُرب بالسياط حتى سقط ، وسجن ، وقُتل خلق من أنصاره ، ومنعوا من الحج ، وضُربت عنق الإمام أحمد بن نصر المروزي ، وصلب مدة طويلة ، وامتُحن علماء السلف في إيمانهم في فتنة خلق القرآن ، وفصلوا من أعمالهم ، وقُطعت أرزاقهم ، وكُفِّر ابن تيمية ، وسُجن وضُرب وعُذب ، ونالته الألسن بالألفاظ البذيئة ، في زمنه وحتى عصرنا هذا .. والقائمة طويلة .

(٨) أن الأخطاء والانحرافات التي تتماشى وتتفق مع أصول المذهب ويقرها ، هي ما يدان به المذهب أو تدان به الطائفة ، وليست أخطاء الأفراد أو الجماعات التي أصولهم ومنهجهم ومذهبهم يرفضها ويدينها ويرد عليها .

❂ ❂ ❂ ❂

المبحث الثاني

موقف ابن تيمية من التكفير

تناولت الكثير من الدراسات العلمية والأكاديمية المنصفة موقف شيخ الإسلام ابن تيمية - رَحِمَهُ اللَّهُ - من التكفير ، وأبانت بشكل واضح وجلي حقيقة آراء ابن تيمية وأنها لا تختلف في شيء عن مذهب أهل السنة والجماعة ، مذهب العدل والرحمة بالمسلمين وبالناس جميعاً .

ونحن هنا لسنا بصدد عرض موقف ابن تيمية بالتفصيل ، بل بصدد عرضٍ موجزٍ لأهم آراء وأقوال وأفكار ابن تيمية حول مسألة التكفير وموقفه من المخالفين ؛ والتي أطال أهل الخلاف فيها الكلام ؛ وامتدت ألسنتهم الحداد ضد ابن تيمية واتهموه بما ليس فيه ، وقَوَّلُوه ما لم يقله .

وأنا هنا أضع بين يديك - أخي القارئ الكريم - كلام ابن تيمية نفسه ، وتطبيقاته العملية ، ليتضح لك ، ولكل منصف حقيقة موقف ابن تيمية .

إن أولَ أمر يقرره - رَحِمَهُ اللَّهُ - هو ما قرره أهل السنة والجماعة من أن التكفير حكم اللَّه عز وجل ، وحكم رسوله صلى اللَّه عليه وآله

وسلم ، وأن التعدي على المسلم بالتكفير من أعظم الأمور شناعة ، وأكثرها بشاعة ، وأخطرها أثراً على الإسلام والمسلمين .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : (وليس لأحد أن يكفر أحداً من المسلمين ، وإن أخطأ وغلط ، حتى تقام عليه الحجة ، وتُبيّن له المحجة ، ومن ثبت إسلامه بيقين ، لم يزل ذلك عنه بالشك)[١] .

وقال : (ولا يجوز تكفير المسلم بذنب فعله ، ولا بخطأ أخطأ فيه ، كالمسائل التي تنازع فيها أهل القبلة)[٢] .

وقال مؤكداً منهجه الذي لا يحيد عنه : (هذا مع أني دائماً ، ومن جالسني يعلم ذلك مني ، أني من أعظم الناس نهياً عن أن ينسب معين إلى تكفير وتفسيق ومعصية ، إلا إذا علم أنه قد قامت عليه الحجة الرسالية التي من خالفها كان كافراً تارة ، وفاسقاً أخرى ، وعاصياً أخرى)[٣] .

وبعد بيان خطورة التكفير ، وضرورة التحري فيه ، يبيِّن المنهج السني في مسألة التكفير ، وأن أهل السنة والجماعة يفرقون في

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٦٦) .

(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٢٨٢) .

(٣) مجموع الفتاوى (٣/٢٢٩) .

أحكام التكفير بين التكفير المطلق (جنس التكفير) وبين تكفير المعيَّن ، لأن للتكفير شروطاً لا بد من تحققها ، وموانع لا بد من ارتفاعها حتى يتحقق الحكم .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : (التكفير له شروط وموانع قد تنتفي في حق المعيّن ، وإن تكفير المطلق لا يستلزم تكفير المعيّن ، إلا إذا وجدت الشروط ، وانتفت الموانع ، يبيّن هذا أن الإمام أحمد وعامة الأئمة الذين أطلقوا هذه العمومات ، لم يكفّروا أكثر من تكلم بهذا الكلام بعينه)[1] .

ويقول : (وكنت أبيّن لهم إن ما نُقل لهم عن السلف والأئمة من إطلاق القول بتكفير من يقول كذا وكذا فهو أيضاً حق ، لكن يجب التفريق بين الإطلاق والتعيين ، وهذه أول مسألة تنازعت فيها الأمة من مسائل الأصول الكبار وهي مسألة الوعيد فإن نصوص القرآن في الوعيد مطلقة كقوله : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ الآية ، وكذلك سائر ما ورد « من فعل كذا فله كذا » . فإن هذه مطلقة عامة وهي بمنزلة قول من قال من السلف : « من قال كذا فهو كذا » . ثم الشخص المعين يلتغي حكم الوعيد فيه بتوبة ، أو حسنات ماحية

(١) مجموع الفتاوى (٤٨٧/١٢) .

أو مصائب مكفرة ، أو شفاعة مقبولة)[١] .

ويعتبر ابن تيمية أن هذا المنهج الصارم المنضبط في التكفير هو من خصائص أهل السنة والجماعة ، والذي فارقوا فيه أهل الخلاف الذين توسعوا في التكفير ، وكفروا غيرهم من المسلمين لأجل مخالفتهم في مذهبهم الذي وضعوه من تلقاء أهوائهم وعقولهم وأذواقهم[٢] !

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : (فمن عيوب أهل البدع تكفير بعضهم بعضاً ، ومن ممادح أهل العلم أنهم يخطئون ولا يكفرون ، وسبب ذلك أن أحدهم قد يظن ما ليس بكفر كفراً ، وقد يكون كفراً لأنه تبيّن له أنه تكذيب للرسول وسب للخالق ، والآخر لم يتبيّن له ذلك فلا يلزم إذا كان هذا العالم بحاله يكفر إذا قاله أن يكفر من لم يعلم بحاله)[٣] .

وقال : (وأئمة السنة والجماعة ، وأهل العلم والإيمان ، فيهم

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٣٠/٣) .

(٢) أقول : انظر تكرماً الفصل الخامس من هذا البحث وهو بعنوان : (موقف الشيعة من المخالفين كأنموذج) .

(٣) منهاج السنة النبوية (٢٥١/٥) .

العلم و العدل و الرحمة ، فيعلمون الحق الذي يكونون به موافقين للسنة سالمين من البدعة ، ويعدلون على من خرج منها ولو ظلمهم ؛ كما قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ ﴾ ويرحمون الخلق ، فيريدون لهم الخير و الهدى و العلم ، لا يقصدون الشر لهم ابتداءً ، بل إذا عاقبوهم و بينوا خطأهم و جهلهم و ظلمهم ؛ كان قصدهم بذلك بيان الحق و رحمة الخلق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن يكون الدين كله لله ، وأن تكون كلمة الله هي العليا)[1] .

ثم يبسط ابن تيمية كلامه في بيان منهج أهل السنة في عذر المخالف ، وبيان أنهم من أرحم الناس بالمخالفين ، ويقول راداً على أهل الخلاف ومبيناً لهم المنهج الوسط العدل لأهل السنة :

(قلت لهم وليس كل من خالف في شيء من هذا الاعتقاد يجب أن يكون هالكاً ، فإن المنازع قد يكون مجتهدا مخطئا يغفر الله خطأه ، وقد لا يكون بلغه في ذلك من العلم ما تقوم به عليه الحجة ،

---

(١) تلخيص كتاب الاستغاثة- تحقيق : محمد علي عجال (٢/ ٤٩٠) مكتبة الغرباء الأثرية الطبعة ، الأولى ١٤١٧هـ .

وقد يكون له من الحسنات ما يمحو اللّٰه به سيئاته)[١] .

وقال : (وأما التكفير ، فالصواب أنه من اجتهد من أمة محمد - صلى اللّٰه عليه وآله وسلم - وقصد الحق فأخطأ لم يكفر ، بل يغفر له خطأه ، ومن تبين له ما جاء به الرسول -صلى اللّٰه عليه وآله وسلم - فشاق الرسول - صلى اللّٰه عليه وآله وسلم - من بعد ما تبين له الهدى واتبع غير سبيل المؤمنين فهو كافر ، ومن اتبع هواه وقصر في طلب الحق وتكلم بلا علم فهو عاص مذنب ثم قد يكون فاسقاً وقد تكون له حسنات ترجح على سيئاته . فالتكفير يختلف بحسب اختلاف حال الشخص فليس كل مخطئ ولا مبتدع ولا جاهل ولا ضال يكون كافراً بل ولا فاسقاً بل ولا عاصياً)[٢] .

وقال : (الأقوال التي يكفر قائلها قد يكون الرجل لم تبلغه النصوص الموجبة لمعرفة الحق ، وقد تكون عنده ولم تثبت عنده ، أو لم يتمكن من فهمها ، وقد يكون قد عرضت له شبهات يعذره اللّٰه بها ، فمن كان من المؤمنين مجتهداً في طلب

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/١٧٩) .

(٢) مجموع الفتاوى (١٢/ ١٨٠) .

الحق وأخطأ ؛ فان الله يغفر له خطأه كائناً ما كان ، سواء كان في المسائل النظرية أو العملية ، هذا الذي عليه أصحاب النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وجماهير أئمة الإسلام)[١] .

ثم يبيّن - رحمه الله - موقف أهل الخلاف من أهل السنة والجماعة ، وموقف أهل السنة من أهل الخلاف ، فيقول :

(والخوارج تكفر أهل الجماعة ، وكذلك المعتزلة يكفرون من خالفهم ، وكذلك الرافضة ، ومن لم يكفر فسق ، وكذلك أكثر أهل الأهواء يبتدعون رأيا ويكفرون من خالفهم فيه . وأهل السنة يتبعون الحق من ربهم الذي جاء به الرسول ﷺ ولا يكفرون من خالفهم فيه ، بل هم أعلم بالحق وأرحم بالخلق)[٢] .

وقال : (الخوارج هم أول من كفَّر المسلمين ، يكفرون بالذنوب ، ويكفرون من خالفهم في بدعتهم ، ويستحلون دمه وماله . وهذه حال أهل البدع يبتدعون بدعة ويكفرون من خالفهم فيها ، وأهل السنة والجماعة يتبعون الكتاب والسنة

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٣/ ٣٤٦) .

(٢) منهاج السنة (٥/١٥٨) .

ويطيعون اللَّه ورسوله - صلى اللَّه عليه وآله وسلم - فيتبعون الحق ويرحمون الخلق)[١] .

ويبيّن ابن تيمية بكل وضوح موقفه الشخصي ممن كفره من أهل الخلاف ، ليتبيَّن للمنصفين أنه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- هو العالم الذي يحتذي بكل تجرد منهج أهل السنة والجماعة في التعامل مع المخالفين ، وأنهم لا يقابلون التكفير بالتكفير ، ولا التفسيق بالتفسيق ، ولا الشتم والسباب بمثلها .

يقول ابن تيمية : (هذا وأنا في سعة صدر لمن يخالفني فإنه وإن تعدَّى حدود اللَّه فيَّ بتكفير ، أو تفسيق ، أو افتراء ، أو عصبية جاهلية ؛ فأنا لا أتعدَّى حدود اللَّه فيه ، بل أضبط ما أقوله وأفعله وأزنه بميزان العدل ، وأجعله مؤتماً بالكتاب الذي أنزله اللَّه وجعله هدى للناس حاكماً فيما اختلفوا فيه)[٢] .

وقال مبيناً أن ذلك هو منهج السلف الصالح أهل السنة والجماعة :

(فلهذا كان أهل العلم والسنة لا يكفرون من خالفهم ، وإن

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٢٧٩) .

(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٢٤٥) .

كان ذلك المخالف يكفرهم . لأن الكفر حكم شرعي فليس للإنسان أن يعاقب بمثله ، كمن كذب عليك وزنى بأهلك ، ليس لك أن تكذب عليه و تزني بأهله ؛ لأن الكذب و الزنا حرام لحق اللّٰه تعالى ، وكذلك التكفير حق لله فلا يُكَفَّر إلا من كفره اللّٰه و رسوله)[١] .

وهذا الكلام من ابن تيمية - رَحِمَهُ اللهُ - ليس كلاماً تنظيرياً بحتاً لا رصيد له من الواقع ، بل تجد صداه في ممارساته العملية الكثيرة مع المخالفين ، فكم مرة كَفَّرُوه واعتدوا عليه ، وهو يقابل ذلك بالصفح والعفو ، والاعتذار لمخالفيه والتماس المبررات لهم .

يقول : (كنت أقول للجهمية من الحلولية و النفاة الذين نفوا أن اللّٰه تعالى فوق العرش لما وقعت محنتهم : أنا لو وافقتكم كنت كافرًا ، لأني أعلم أن قولكم كُفْرٌ ، وأنتم عندي لا تكفرون لأنكم جُهَّال ، وكان هذا خطاباً لعلمائهم و قضاتهم و شيوخهم وأمرائهم و أصل جهلهم شبهات عقلية حصلت لرؤوسهم في قصور من معرفة المنقول الصحيح و المعقول الصريح الموافق له)[٢] .

---

(١) تلخيص كتاب الاستغاثة (٢/ ٤٩٢) .

(٢) تلخيص كتاب الاستغاثة (٢/ ٤٩٤) .

ثم يطبق ذلك عملياً ، حيث قام أحد شيوخ الصوفية وهو الشيخ علي البكري بتكفير ابن تيمية والاعتداء عليه جسدياً ، ومع ذلك لم يحد ابن تيمية عن منهجه المعتدل .

قال : (لم نقابل جهله - أي البكري الصوفي - وافتراءه بالتكفير بمثله ، كما لو شهد شخص بالزور على شخص أو قذفه بالفاحشة كذباً عليه ، لم يكن له أن يشهد عليه بالزور ولا أن يقذفه بالفاحشة)[١] .

ثم يوصي ابن تيمية عموم الطوائف والفرق الإسلامية بوصية هامة جدًّا ، وهي تجنب التكفير واستحلال الدم فيما بينها ، حيث يقول :

(فلا يحلّ لإحدى الطوائف أن تكفر الأخرى ولا تستحل دمها ومالها ، وإن كانت فيها بدعة محققة ، فكيف إذا كانت المكفِّرة لها مبتدعة أيضاً ، وقد تكون بدعة هؤلاء أغلظ ، والغالب أنهم جميعا جهال بحقائق ما يختلفون فيه)[٢] .

ثم يبيّن - رحمه الله - بشكل جلي وواضح حقيقة مذهب السلف ،

---

(١) تلخيص كتاب الاستغاثة (٢/ ٤٩٤) .

(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٢٨٣) .

ويزيل عنه اللبس ، فيقول :

(طائفة تحكى عن أحمد في تكفير أهل البدع روايتين مطلقاً ، حتى تجعل الخلاف في تكفير المرجئة والشيعة المفضلة لعلي ، وربما رجحت التكفير والتخليد في النار ، وليس هذا مذهب أحمد ولا غيره من أئمة الإسلام ، بل لا يختلف قوله أنه لا يكفر المرجئة الذين يقولون : « الإيمان قول بلا عمل » ، ولا يكفر من يفضل علياً على عثمان ، بل نصوصه صريحة بالامتناع من تكفير الخوارج والقدرية وغيرهم ، وإنما كان يكفر الجهمية المنكرين لأسماء اللَّه وصفاته ، لأن مناقضة أقوالهم لما جاء به الرسول ظاهرة بينة ، ولأن حقيقة قولهم تعطيل الخالق ، وكان قد ابتلي بهم حتى عرف حقيقة أمرهم وأنه يدور على التعطيل ، وتكفير الجهمية مشهور عن السلف والأئمة ، لكن ما كان يكفر أعيانهم فإن الذي يدعو إلى القول أعظم من الذي يقول به ، والذي يعاقب مخالفه أعظم من الذي يدعو فقط ، والذي يكفر مخالفه أعظم من الذي يعاقبه ، ومع هذا فالذين كانوا من ولاة الأمور يقولون بقول الجهمية : « إن القرآن مخلوق » و « إن اللَّه لا يُرَى في الآخرة » وغير ذلك ، ويدعون الناس إلى ذلك ويمتحنونهم

ويعاقبونهم إذا لم يجيبوهم ، ويكفرون من لم يجبهم حتى إنهم كانوا إذا أمسكوا الأسير لم يطلقوه حتى يقر بقول الجهمية : « إن القرآن مخلوق » وغير ذلك ، ولا يولون متولياً ولا يعطون رزقاً من بيت المال إلا لمن يقول ذلك ، ومع هذا فالإمام أحمد رحمه الله تعالى ترحم عليهم واستغفر لهم لعلمه بأنهم لم يتبيّن لهم أنهم مكذبون للرسول ، ولا جاحدون لما جاء به ، ولكن تأولوا فأخطئوا وقلدوا من قال لهم ذلك)(١) .

ويقول - رحمه الله - أيضاً : (فإن الإمام أحمد مثلاً قد باشر الجهمية الذين دعوه إلى خلق القرآن ، ونفى الصفات ، وامتحنوه وسائر علماء وقته ، وفتنوا المؤمنين والمؤمنات الذين لم يوافقوهم على التجهم ؛ بالضرب ، والحبس ، والقتل ، والعزل عن الولايات ، وقطع الأرزاق ، ورد الشهادة ، وترك تخليصهم من أيدي العدو ، بحيث كان كثير من أولي الأمر إذ ذاك من الجهمية من الولاة والقضاة وغيرهم يكفرون كل من لم يكن جهمياً موافقا لهم على نفي الصفات ، مثل القول بخلق القرآن ، ويحكمون فيه بحكمهم في الكافر ، فلا يولونه ولاية ولا يَفْتَكُّونه

(١) مجموع الفتاوى (٢٣/٣٤٦-٣٤٩) .

من عدو ، ولا يعطونه شيئاً من بيت المال ، ولا يقبلون له شهادة ولا فتيا ولا رواية ، ويمتحنون الناس عند الولاية والشهادة والافتكاك من الأسر وغير ذلك ، فمن أقر بخلق القرآن حكموا له بالإيمان ، ومن لم يقر به لم يحكموا له بحكم أهل الإيمان ، ومن كان داعياً إلى غير التجهّم قتلوه أو ضربوه وحبسوه ، ومعلوم أن هذا من أغلظ التجهّم ، فإن الدعاء إلى المقالة أعظم من قولها وإثابة قائلها وعقوبة تاركها أعظم من مجرد الدعاء إليها ، والعقوبة بالقتل لقائلها أعظم من العقوبة بالضرب ، ثم إن الإمام أحمد دعا للخليفة وغيره ممن ضربه وحبسه ، واستغفر لهم وحللهم مما فعلوه به من الظلم والدعاء إلى القول الذي هو كفر ، ولو كانوا مرتدين عن الإسلام لم يجز الاستغفار لهم فإن الاستغفار للكفار لا يجوز بالكتاب والسنة والإجماع ، وهذه الأقوال والأعمال منه ومن غيره من الأئمة صريحة في أنهم لم يكفروا المعينين من الجهمية)[١] .

ثم يقدم ابن تيمية رؤية أهل السنة والجماعة لأهل الخلاف ، الرؤية القائمة على العدل والرحمة والرأفة بهم ، وإجراء أحكام

(١) مجموع الفتاوى (١٢/٤٨٨-٤٨٩) .

القرآن والسنة عليهم ، بعيداً عن تحكم الأهواء المذهبيَّة ، والرغبات الطائفيَّة ، والتي كثيراً ما دفعت الطائفيين والمذهبيين إلى ظلم المخالف ، والتعدي عليه بغير الحق .

يقول ابن تيمية : (إن المتأول الذي قصده متابعة الرسول صلى اللَّه عليه وآله وسلم لا يكفر ، بل ولا يفسق إذا اجتهد فأخطأ ، وهذا مشهور عند الناس في المسائل العملية ، وأما مسائل العقائد فكثير من الناس كَفَّرَ المخطئين فيها ، وهذا القول لا يعرف عن أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولا عن أحد من أئمة المسلمين وإنما هو في الأصل من أقوال أهل البدع الذين يبتدعون بدعة ويكفرون من خالفهم كالخوارج ، والمعتزلة ، والجهمية ، ووقع ذلك في كثير من أتباع الأئمة كبعض أصحاب مالك ، والشافعي ، وأحمد وغيرهم)[١] .

ويقول : (فأما من كان في قلبه الإيمان بالرسول صلى اللَّه عليه وآله وسلم وما جاء به ، وقد غلط في بعض ما تأوله من البدع ، فهذا ليس بكافر أصلاً)[٢] .

---

(١) منهاج السنة (٥/٢٣٩-٢٤٠) .

(٢) مجموع الفتاوى (٢١٧/٧) .

ثم يعرض ابن تيمية جملة من أصناف أهل الخلاف مبيناً موقفه منهم ، كممارسة تطبيقية لآرائه وأقواله السالفة ، ليقف القارئ الكريم على مصداقية توافق منهج ابن تيمية وأقواله مع أعماله وتطبيقاته ، وليقف بنفسه أمام هذه النفسية الكبيرة القائمة على العدل والرحمة والإنصاف بحق المخالفين .

إن تلك النفس المؤمنة العظيمة هي التي أَثَّرت في ابن تيمية في تعامله مع الطوائف والفرق المخالفة ، فابن تيمية - أولاً وقبل كل شيء - باحث عن الحق ، ومن مهمة الباحث العلمي أن يعري ويكشف حقائق الأفكار وزيفها وصدقها ، لأنه يقوم بمهمة علمية يفترض فيه الأمانة والصدق والصراحة مع العدالة والرحمة ، ومع ما يوصف به ابن تيمية من الحِدَّة والقوَّة في الجدل ، إلا أنه أنصف أشد الطوائف بُعداً عن عقيدة أهل السنة .

فحينما تناول شيخ الإسلام الجهمية والخوارج والشيعة بالنقد والتحليل ، لم تمنعه مخالفتهم والرد عليهم ونقض أصولهم أن ينصفهم ويعدل معهم ، ونصوصه في ذلك كثيرة .

فقد تحدث عن طائفة الخوارج ، ومما قاله فيهم :

(والخوارج المارقون الذين أمر النبي -صلى اللّه عليه وآله

وسلم - بقتالهم ، قاتلهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رضي اللَّه عنه - أحد الخلفاء الراشدين واتفق على قتالهم أئمة الدين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، ولم يكفرهم علي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص وغيرهما من الصحابة - رضي اللَّه عنهم- بل جعلوهم مسلمين مع قتالهم ، ولم يقاتلهم علي حتى سفكوا الدم الحرام وأغاروا على أموال المسلمين ، فقاتلهم لدفع ظلمهم وبغيهم ، لا لأنهم كفار ، ولهذا لم يَسْبِ حريمهم ، ولم يغنم أموالهم . وإذا كان هؤلاء الذين ثبت ضلالهم بالنص والإجماع لم يكفروا مع أمر اللَّه ورسوله - صلى اللَّه عليه وآله وسلم - بقتالهم فكيف بالطوائف المختلفين الذين اشتبه عليهم الحق في مسائل غلط فيها من هو أعلم منهم)[١] .

وحينما تحدَّث ابن تيمية عن المعتزلة وبعض رجالاتها ، تكلم فيهم بعدل وصدق وإنصاف ، ولم يدفعه خلافه معهم إلى الكذب عليهم ، أو ظلمهم أو التعدي عليهم .

فها هو يقول عن أحد أبرز رجالات المعتزلة : (فعمرو بن عبيد وأمثاله لم يكن أصل مقصودهم معاندة الرسول

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٢٨٢) .

صلى اللَّه عليه وآله وسلم)[١] .

وقال عن المعتزلة : إنهم مع مخالفتهم نصروا الإسلام في مواطن كثيرة وردوا على الكفار والملاحدة بحجج عقلية[٢] .

وقد عاب شيخ الإسلام ابن تيمية على ابن فورك الأشعري تكفيره المعتزلة ، وتأليب الحكام عليهم . يقول - رحمه الله - عن ذلك :

(قصد بنيسابور القيام على المعتزلة في استتابتهم وكما كفرهم عند السلطان ، ومن لم يعدل في خصومه ومنازعيه ويعذرهم بالخطأ في الاجتهاد ، بل ابتدع بدعة وعادى من خالفه فيها أو كفره فإنما هو ظالم لنفسه ، وأهل السنة و العلم و الإيمان يعلمون الحق ، و يرحمون الخلق ، و يتبعون الرسول -صلى اللَّه عليه وآله وسم- فلا يبتدعون ، و من اجتهد فأخطأ خطأ يعذره فيه الرسول - صلى اللَّه عليه وآله وسلم - عذروه)[٣] .

وهذا هو ابن تيمية يتحدث عن مخالفيه من أهل الكلام

---

(١) مجموع الفتاوى (٤٤٦/١٧) .

(٢) انظر : درء التعارض (١٠٦/٧ -١٠٧) .

(٣) مجموع الفتاوى (٩٦/١٦) .

(الماتريدية و الأشاعرة) فيقول عنهم : (إنه ما من هؤلاء إلا من له في الإسلام مساع مشكورة ، وحسنات مبرورة ، وله في الرد على كثير من أهل الإلحاد والبدع والانتصار لكثير من أهل السنة والدين ما لا يخفى على من عرف أحوالهم وتكلم فيهم بعلم وصدق وعدل وإنصاف)[١] .

ويتحدث عن الأشاعرة بالذات مع مخالفته لهم في كثير من الأصول والفروع ، فيقول :

(إنهم أقرب طوائف أهل الكلام إلى السنة والجماعة ، وهو يعدون من أهل السنة والجماعة عند النظر إلى مثل المعتزلة والرافضة وغيرهم ، بل هم أهل السنة والجماعة في البلاد التي يكون أهل البدع فيها هم المعتزلة والرافضة ونحوهم)[٢] .

وحينما تحدث ابن تيمية عن الشيعة رد عليهم مخالفاتهم بأسلوب علمي رصين ، قائم على البراهين والأدلة العقلية والنقلية ومع مخالفتهم الكبيرة لأهل السنة ، ومباينتهم العظيمة لأهل الجماعة ، إلا أن ذلك لم يمنع ابن تيمية من إنصافهم والعدل معهم .

---

(١) درء التعارض (١٠٢/٢) .

(٢) نقض التأسيس (٨٧/٢) .

فيقول وهو يتحدث عن طائفة الشيعة الجعفرية الإمامية : (كثيراً منهم ليسوا منافقين ولا كفاراً ، بل بعضهم له إيمان وعمل صالح ، ومنهم من هو مخطئ يغفر له خطاياه ، ومنهم من هو صاحب ذنب يرجى له مغفرة اللّٰه)[١] .

وقال : (والرافضة فيهم من هو متعبد متورع زاهد)[٢] .

وقال منصفاً الشيعة : (وينبغي أيضاً أن يعلم أنه ليس كل ما ينكره بعض الناس عليهم يكون باطلاً ، بل من أقوالهم أقوال خالفهم فيها بعض أهل السنة ووافقهم بعضهم ، والصواب مع من وافقهم)[٣] .

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن لهم جهوداً في دعوة الكفار إلى الإسلام فدخل على أيديهم أُناسٌ من الكفار ، هذا مع إيمانه وتصريحه باشتمال مذهبهم على جملة من الضلالات والمكفرات في الإسلام .

ويبيّن ابن تيمية نقطة مهمة جدًّا في أخلاقيات السلف الصالح

---

(١) منهاج السنة (٣٠٢/٦) .

(٢) منهاج السنة (١٥٧/٥) .

(٣) منهاج السنة (٤٤/١) .

أهل السنة والجماعة مع مخالفيهم ، وهي الرحمة بهم والعدل معهم أكثر من رحمتهم لبعضهم البعض!

قال ابن تيمية : (فأهل السنة يستعملون معهم -أي المخالفين- العدل والإنصاف ، ولا يظلمونهم ، فإن الظلم حرام مطلقاً ، كما تقدم ، بل أهل السنة لكل طائفة من هؤلاء خير من بعضهم لبعض ، بل هم للرافضة خير وأعدل من بعض الرافضة لبعض ، وهذا مما يعترفون هم به ، ويقولون : « أنتم تنصفوننا ما لا ينصف بعضنا بعضاً .. » ولا ريب أن المسلم العالم العادل أعدل عليهم وعلى بعضهم من بعض)[١] .

وكان - رحمه الله - عموماً من أشد الناس رحمة بالمسلمين بشكل خاص ، وبالمخالفين بشكل عام ، فهذا الإمام الحافظ شمس الدين الذهبي يقول :

(رأيت للأشعري كلمة أعجبتني وهي ثابتة رواها البيهقي ، سمعت أبا حازم العبدوي سمعت زاهر بن أحمد السرخسي يقول : لما قرب حضور أجل أبي الحسن الأشعري في داري ببغداد ، دعاني فأتيته ، فقال : « اشهد عليّ أني لا أكفر أحداً من

(١) منهاج السنة النبوية (٥/ ١٥٧- ١٥٨) .

أهل القبلة ، لأن الكل يشيرون إلى معبود واحد ، وإنما هذا كله اختلاف العبارات » . قلتُ - أي الذهبي - : وبنحو هذا أدين ، وكذا كان شيخنا ابن تيمية في أواخر أيامه يقول : أنا لا أكفر أحداً من الأمة ، ويقول : قال النبي ﷺ : « لا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن » فمن لازم الصلوات بوضوء فهو مسلم)[١] .

فانظر أخي القارئ الكريم -وأنت قد قرأت تلك النصوص ، وقد عرفت مصدرها من كتب ابن تيمية- إلى موقف ابن تيمية من المسلمين ، وكيف كان يتعامل مع مخالفيه بالرحمة والعدل والحق ، وأظنه قد تبيَّن لك بشكل جلي وواضح أقوال الرجل ومنهجه في هذه المسألة ، وعليه كيف نقبل قول القائل ، وزعم الزاعم : (إن ابن تيمية كان مكفراً للمسلمين ، ساعياً في تفريقهم ، باذلاً جهده للطعن فيهم) وهذه نصوص ابن تيمية شاهدة بزيف هذا الادعاء وبطلانه جملة وتفصيلا ؟!

۞ ۞ ۞ ۞

(١) سير أعلام النبلاء (١٥/٨٨) .



الفصل الرابع
سيرة ابن تيمية العمليّة مع مخالفيه

فجرت بينه وبينهم حملات حربيّة، ووقعات
شاميّة ومصريّة، وكم من نوبة قد رموه عن
قوس واحدة فينجيه الله تعالى، فإنه دائم
الابتهال، كثير الاستغاثة قوي التوكل
ثابت الجأش، له أوراد وأذكار يدمنها

الحافظ الذهبي «الرد الوافر» لابن ناصر الدين ص ٧١

تمهيد

ليست هناك شخصية عظيمة في تاريخنا الإسلامي المتأخر ظُلمت في عصرها - وبعده - مثل شخصية شيخ الإسلام ابن تيمية - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - فالعصر الذي عاش فيه وما تعرض له من عداء وهجوم وسجن وتعذيب واعتداء خير شاهد على هذا الظلم .

بل إن مرارة الظلم تزداد تجاه هذه الشخصية الكبيرة حينما نجد من يدعي الثقافة والمعرفة والعقلانية والحرية ؛ ثم يقف في صف السجَّان ضد المسجون ، وفي خندق الظالم ضد المظلوم ، ويتحالف مع المُكفِر ضد ضحية التكفير!

ولو تأمل هؤلاء بطريقة علمية رصينة أقوال وأفعال وسيرة ابن تيمية ، لما ظلموا أنفسهم بظلمهم له ، حيث تكلموا فيه بغير علم ، بل بجهلٍ وهوى وتقليد أعمى منعهم من معرفته على حقيقته الناصعة .

فالرجل - أي ابن تيمية - كان يحكمه في جلِّ تصرفاته مع مخالفيه ميزان العدل والرحمة ، وكان كلمة إجماع عند عقلاء العلماء ، و محلّ محبة الناس ، وكانت سيرته الخالدة رمزاً للعدالة والتسامح ومحبة الناس ، والتضحية من أجل الحق .

قال الإمام الذهبي عنه : (وسائر العامة تحبه ؛ لأنه منتصب لنفعهم ليلاً ونهاراً ، بلسانه وقلمه)[١] .

وجميل ما ذكره العلامة الإمام ابن طرخان الملكاوي في حق أعداء ابن تيمية ، حيث قال : (لو دروا ما يقول لرجعوا إلى محبته وولائه)[٢] .

وقال القاضي بهاء الدين السُّبكي : (والله ما يبغض ابن تيمية إلا جاهل أو صاحب هوىً ، فالجاهل لا يدري ما يقول ، وصاحب الهوى يصده هواه عن الحق بعد معرفته به)[٣] .

وليس الغرض هنا - أخي القارئ الكريم - عرض جميع سيرة ابن تيمية الطيبة والسمحة مع مخالفيه ، بل المقصود عرض شيء يسير من مواقفه التسامحيَّة لبيان الصورة الحقيقية والناصعة للروح التي كان ابن تيمية يقابل بها كراهية وعداء خصومه .

لقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية يدرك أن الاختلاف أمر طبعي بل حتمي في هذا الكون ، وهذه سُنَّة إلهية ، حيث بيّن اللَّه

---

(١) الرد الوافر (ص٧١) .

(٢) الرد الوافر (ص ١٤١) .

(٣) الرد الوافر (ص٩٩) .

سبحانه وتعالى أن الناس في اختلاف ، وأنهم لا يزالون كذلك ، وأن الخلاف لا يعرف أحقيته أو بطلانه بكثرة الأعداد أو قِلَّتها ، وأن الحق لا يرتبط بالأشخاص ولا بالدول ولا بالمؤسسات ، والحق أصيل وقديم ، وهو الغالب بالكلمة والحجة والبرهان ، وأن الحق لا يحتاج إلى أشخاص يجيدون الشتائم والسباب ، بل الحوار الهادف ، والنقد البناء ، فالحق في صراعه مع الباطل ظاهر في مآلاته ، ويوم يرث اللَّه الأرض ومن عليها لن يكون للباطل وأهله كلمة ولا صولة ولا جولة .

ومن إيمان ابن تيمية الراسخ بالحق ، ورحمته بالخلق كانت مواقفه النابعة من العدل والرحمة والتسامح تجاه مخالفيه ، مواقف عدل حقيقية ، قائمة على بيان الحق بوضوح ، والعدل مع الخصوم ، وليست المسألة عنده لعبة سياسية ، أو مجرد نفاق ، أو خوف و (تقيَّة) أو رغبة لتحصيل منافع دنيوية عاجلة .

كما أن مواقفه العادلة الأصيلة لم تكن في حال الضعف بل كانت في مواقف القوة والغلبة ، ومع كون الحق معه وله ، إلا أنه يتسامح مع من ظلمه مع قدرته على إنزال العقوبة به . تلك حقاً نفس كريم الخلق والروح .

ولقد وضع ابن تيمية قاعدة عظيمة للتسامح في حياته السلوكيَّة والعملية ، هذه القاعدة هي مقولته المشهورة : (أحللت كل مسلم عن إيذائه لي) والتي ظل يرددها عند كل موقفٍ ظُلم فيها وتُعدي عليه من قِبَلِ خصومه ، وحين يُطلب منه الرد عليهم بالمثل ؛ يجيب أنصاره بتلك المقولة السابقة!

لقد كان لسان حال شيخ الإسلام مع أعدائه : إنني لا أنقم عليكم شيئاً من حظوظ الدنيا ، ولا أنافسكم على شيء من حطامها ، ولا أكرهكم لذواتكم ، ولا أريد الانتقام منكم ، بل أريد أن يعلو الحق وتظهر الحقيقة ، كما أحب الخير لكم ولكل مسلم ، وأحب أن تكونوا دائماً سعداء وتنعمون بالبهجة والرضا ، وكل شر يصلني منكم سأرده بخير ، وكل شتيمة من قِبلكم ستجدون في مقابلها دعاء لكم بكل خير .

هكذا كانت سيرته الراسخة في التعامل العادل مع خصومه ، ومهما اشتد عليه الأذى والتضييق من خصومه ، نجده يبادلهم بالعفو والتسامح والغفران ، بنفس مؤمنة ، وبقلب طاهر .

ولأن ابن تيمية رجل يقول الخير ويفعله ، ويؤسس التسامح ويمارسه ، لذلك وجدنا حياته صورة صادقة وتعبيرًا دقيقًا لهذا

الروح ، إنها التربية العملية التي يسعى صاحبها لممارسة النظريات الأخلاقية التي يؤمن بها .

وإليك - أخي القارئ - بعض الأمثلة العملية لعدل ورحمة وتسامح ابن تيمية مع خصومه :

المبحث الأول

موقف ابن تيمية من خصمه البكري الصوفي

كانت من أشد المحن التي مرت بابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- محنته مع غلاة الصوفية عام ٧٠٧هـ . ففي مصر حينما خرج من سجنها ظل فيها يُدرس تلاميذه ، ويعظ الناس ، ويرسخ عقائد السلف في نفوس الناس ، وينقد الخرافات والخزعبلات التي كانت منتشرة هناك . هذا النشاط التثقيفي والتنويري الذي كان ابن تيمية يقوم به لم يعجب ذلك شيوخ الصوفية الغلاة ، أمثال : نصر المنبجي ، وابن عطاء اللّه السكندري ، وعلي بن يعقوب البكري . فجمعوا أتباعهم من المتصوفة والعوام وساروا إلى السلطان ليستعينوا به على ابن تيمية ، من أجل إيداعه السجن ، وفعلاً نجحوا في ذلك !

إلا أن ابن تيمية لم تهن عزيمته ، بل واصل في الحبس دروسه ، وأخذ الناس يقصدونه ويزورونه للتفقه في أمور دينهم والاستفتاء ، وهكذا أكب الناس عليه من كل حدب وصوب ، فساء ذلك غلاة الصوفية وغيرهم ، فأخرجه الجاشنكير - حاكم مصر آنذاك ، وهو كان التلميذ المطيع لشيخه الصوفي نصر المنبجي- من القاهرة

إلى الإسكندرية كالمنفي سنة ٧٠٩هـ ، ومنعوا أن يجتمع عنده أحد .

وكان ابن تيمية في كل ما يصيبه من هؤلاء صابراً محتسباً أجره عند الله ، يقابل الإساءة بالإحسان ، والظلم بالعفو والمغفرة ، وفي مقابل ذلك كان يظهر الحق ويجيب السائل بكل أمانة وموضوعية ، ويعدل في القول وينصف الخصم .

وقد ألف شيخ الإسلام ابن تيمية كتاباً بعنوان (الاستغاثة) وهو رسالة علمية بالأدلة الشرعية في حكم الاستغاثة بغير الله ، وهو رد على رسالة كتبها الشيخ الصوفي علي البكري .

وبدل أن يقابل البكري رد ابن تيمية بالحجة والبرهان ، بادر إلى الحكم عليه بالكفر والردة والخروج عن ملة الإسلام[١] !

ولم يكتف الشيخ الصوفي البكري - عفا الله عنا وعنه - بمجرد التكفير ، بل بالغ في إيذاء ابن تيمية بالقول والعمل ، حيث كتب إلى السلطان يستعديه على ابن تيمية ، ويحثه على قتله !

---

(١) انظر : كتاب الاستغاثة - لابن تيمية ، تحقيق : عبدالله السهلي (٥٩٦/٢) دار الوطن ، الرياض .

بل قام باستعداء العوام على الشيخ ، وحرضَ الجند وأصحاب الدولة على شيخ الإسلام ، وشهر به ، وأقذع الشتيمة في حقه ، وأهدر دمه .

وكان الشيخ الصوفي البكري من أشد الصوفية على شيخ الإسلام ابن تيمية ، ففي محنة الشيخ مع الصوفية سنة ٧٠٧هـ حول قضية (الاستغاثة) طالب بعضهم بتعزير شيخ الإسلام ، إلا أن الشيخ البكري طالب بقتله وسفك دمه[١] !

وفي سنة ٧١١هـ تجمهر بعض العوام من الصوفية ومعهم الشيخ علي البكري ، وتبعوا شيخ الإسلام ابن تيمية حتى تفردوا به وضربوه ، وفي حادثة أخرى تفرد البكري بابن تيمية ووثب عليه ونتش أطواقه وطيلسانه ، وبالغ في إيذاء ابن تيمية والاعتداء عليه ، ولم يزد ابن تيمية إلا أن قال : حسبنا الله ونعم الوكيل[٢] !

---

(١) انظر : الدرر الكامنة (١٥٥/١) ، ونزل من اتقى بكشف أحوال المنتقى - للعلامة الكشميري ، نقلاً عن الجامع لسيرة شيخ الإسلام (ص ٦٧٨- ٦٧٩) .

(٢) انظر : العقود الدرية (ص ٣٠٥) ، ونزل من اتقى بكشف أحوال المنتقى - للعلامة الكشميري ، نقلاً عن الجامع لسيرة شيخ الإسلام (ص ٦٧٨- ٦٧٩) ، والمقفى الكبير- للعلامة المقريزي ، نقلاً عن الجامع لسيرة شيخ الإسلام (ص ٥٠٩) ، والذيل على طبقات الحنابلة- للعلامة ابن رجب الحنبلي ، نقلاً عن الجامع لسيرة شيخ الإسلام (ص ٤٧٨- ٤٧٩) .

في المقابل تجمع الناس وشاهدوا ما حصل لشيخ الإسلام من أذية وتعدي ، فطلبوا الانتقام من الشيخ البكري ، فهرب ، وطُلب أيضاً من جهة الدولة فهرب واختفى ، وثار بسبب ما فعله فتنة ، وحضر جماعة كثيرة من الجند والفرسان وتتابع الناس تجمعاً وتجمهراً على شيخ الإسلام ابن تيمية لأجل الانتصار له والانتقام من خصمه الذي كَفَّرَه واعتدى عليه .

وقالوا : يا سيدي قد جاء خلق من الحسينية لو أمرتهم أن يهدموا مصر كلها لفعلوا ! فقال لهم : لأي شيء ؟ فقالوا : لأجلك ! فقال لهم : هذا ما يحق . فقالوا : نحن نذهب إلى بيوت هؤلاء الذين آذوك فنقتلهم ونخرب دورهم ، فإنهم شوشوا على الخلق وأثاروا هذه الفتنة على الناس . فقال لهم : هذا ما يحل . قالوا : فهذا الذي قد فعلوه معك يحل؟ هذا شيء لا نصبر عليه ، ولا بد أن نروح إليهم ونقاتلهم على ما فعلوا .

وظل ابن تيمية ينهاهم ويزجرهم ، ويقول لهم : (أنا ما أنتصر لنفسي) ! فحينها ماج الناس والجند والفرسان وأكثروا عليه وألحوا في طلب الانتقام والمطالبة بنصرته ، وأن يشير عليهم بما يراه مناسباً للرد على خصمه ؛ فقال لهم مشدداً عليهم : إما أن

يكون الحق لي ، أو لكم ، أو لله . فإن كان الحق لي فهم في حل وإن كان لكم فإن لم تسمعوا مني فلا تستفتوني وافعلوا ما شئتم وإن كان الحق لله فالله يأخذ حقه كما يشاء ومتى يشاء .

فقالوا : فهذا الذي فعلوه معك هو حلال لهم ؟

فرد عليهم ابن تيمية وقال : هذا الذي فعلوه قد يكونون مثابين عليه مأجورين فيه !

فقالوا : فتكون أنت على الباطل وهم على الحق ، فإذا كنت تقول : « إنهم مأجورين » فاسمع منهم ووافقهم على قولهم!

فقال لهم : ما الأمر كما تزعمون ، فإنهم قد يكونون مجتهدين مخطئين ، ففعلوا ذلك باجتهادهم والمجتهد المخطئ له أجر .

فبلغ هذا الكلام كثيراً من خصومه ، فتعجبوا وقالوا : (والله لقد كنا متجنين في حق هذا الرجل لقيامنا عليه ، والله إن الذي يقوله هذا هو الحق)[١] .

ولما اشتد طلب الدولة للشيخ البكري وضاقت عليه الأرض بما رحبت هرب واختفى عن أنظار الناس والدولة ، ولكن العجيب أنه لم يجد له مكاناً آمنًا إلا بيت ابن تيمية نفسه ، حيث

---

(١) انظر : العقود الدرية (٣٠١ - ٣٠٥) .

هرب واختفى عنده لما كان مقيماً في مصر ، حتى شفع فيه ابن تيمية عند السلطان وعفا عنه[١] !

قال ابن تيمية مبيناً أن هذا الأمر منهجه العملي وخطابه الفكري تجاه مخالفيه :

(لم نقابل جهله -أي البكري الصوفي- وافتراءه بالتكفير بمثله ، كما لو شهد شخص بالزور على شخص أو قذفه بالفاحشة كذباً عليه ، لم يكن له أن يشهد عليه بالزور ولا أن يقذفه بالفاحشة)[٢] .

وقال أيضاً مبيناً تسامحه مع أعدائه : (هذا وأنا في سعة صدر لمن يخالفني ، فإنه وإن تعدَّى حدود اللَّه فيَّ بتكفير ، أو تفسيق ، أو افتراء ، أو عصبية جاهلية ؛ فأنا لا أتعدَّى حدود اللَّه فيه ، بل أضبط ما أقوله وأفعله وأزنه بميزان العدل ، وأجعله مؤتماً بالكتاب الذي أنزله اللَّه وجعله هدى للناس حاكماً فيما اختلفوا فيه)[٣] .

---

(١) انظر : البداية والنهاية (١٤/ ٨٠ ، ١٣١) ، ونزل من اتقى بكشف أحوال المنتقى - للعلامة الكشميري ، نقلاً عن الجامع لسيرة شيخ الإسلام (ص ٦٧٨- ٦٧٩) .

(٢) تلخيص كتاب الاستغاثة (٢/ ٤٩٤) .

(٣) مجموع الفتاوى : (٣/ ٢٤٥) .

ثم بيَّن ابن تيمية أن هذا ليس موقفه الشخصي فحسب ، بل هذا منهج السلف الصالح ، والذي دأب ابن تيمية على ملازمته ، قال رحمه الله :

(فلهذا كان أهل العلم و السنة لا يكفرون من خالفهم ، وإن كان ذلك المخالف يكفرهم . لأن الكفر حكم شرعي فليس للإنسان أن يعاقب بمثله ، كمن كذب عليك وزنى بأهلك ليس لك أن تكذب عليه و تزني بأهله ؛ لأن الكذب و الزنا حرام لحق اللَّه تعالى ، وكذلك التكفير حق لله فلا يكفر إلا من كفره اللَّه و رسوله)[١] .

أقول : انظر أيها القارئ إلى عظيم تسامح هذا الإنسان الكبير ، فالبكري ومن معه من الصوفية قابلوه بالظلم والتكفير والاعتداء والعدوان والبهتان ، وابن تيمية قابلهم بالعفو والإحسان والكرم ، إن في ذلك لآية عظيمة لكل منصف .

۞ ۞ ۞ ۞

---

(١) تلخيص كتاب الاستغاثة (٢/ ٤٩٢) .

المبحث الثاني

موقف ابن تيمية من خصومه الذين تسببوا في سجنه وطالبوا بقتله

لم يكن امتحان الصوفية هو الامتحان الوحيد الذي ابتلي به ابن تيمية ، بل ابتلي - رحمه الله - بقرناء حسدوه على محبة الناس والخلق له ، وعلى ما منَّ اللّه به عليه من علم ودين وخلق ، وما ناله من مكانة عظيمة في قلوب الجميع ، لقد كان شيخ الإسلام - رحمه الله - من أكثر العلماء الجهابذة الذين تعرضوا لأذى الأقران الحساد ، ولكنه كان مع كل ذلك صابراً محتسباً ، وكان معهم من ألطف الناس وأرحمهم .

يقول الحافظ البزّار حاكياً حال خصومه : (ولما رأوا هذا الإمام عالم الآخرة ، تاركاً لما هُمْ عليه من تحصيل الحُطام ، من الشُّبه الحرام ، رافضاً الفضل المُباح فضلاً عن الحرام ، تحققوا أنّ أحواله تفضح أحوالهم وتوضِّحُ خفِيَّ أفعالهم ، وأخذتهم الغيرةُ النفسانيّةُ ، على صفاتهم الشيطانية ، المباينة لصفاته الروحانية ، فحرصوا على الفتك به أين ما وجدوه)[1] .

---

(١) الأعلام العليّة في مناقب ابن تيمية (ص٤٢-٤٣) .

ولذا فقد اجتمع هؤلاء عليه وهم أشتاتٌ كثيرة ، وأطياف منوعة ، يجمعهم هدفٌ واحد وهو إسقاط ابن تيمية والنيل منه ، حاولوا محاورته فأسقط في أيديهم ، راموا مجاراته في العلم والفقه والمعرفة فرجعوا خائبين ، ناظروه وجادلوه فبيَّن لهم المحجة وألزمهم الحجة ، فاستعانوا عليه بالسلطان ، فكتبوا التقارير الكاذبة والشكاوى الكيديَّة ، محاولين نكبته عند ولي الأمر بعد أن يئسوا من الظهور عليه بالحجة والبرهان ، وما أشبه الليلة بالبارحة!

يقول ابن فضل اللَّه العمري : (فلقد اجتمع عليه عصب الفقهاء والقضاة بمصر والشام ، وحشدوا عليه خيلهم ورجلهم ، فقطع الجميع ، وألزمهم الحجج الواضحات أيّ إلزام ، فلما أفلسوا أخذوه بالجاه والحكام)[١] .

وفي عام ٧٠٩هـ بعد أن وشى به بعض هؤلاء وكذبوا عليه وألّبوا الحكام والأمراء عليه ، وتزلفوا لدى الكبراء في أمر ابن تيمية ، سُجن وعذب ، هو وأصحابه ، وتولى كِبَر ذلك الجُرم شيخ غلاة الصوفية في زمنه الشيخ نصر المنبجي والأمير ركن الدين (بيبرس الجاشنكير) تلميذ المنبجي ، وجماعة من الفقهاء والعلماء على

(١) الرد الوافر (ص ١٤٩) .

رأسهم القاضي المالكي ابن مخلوف ، وهؤلاء هم ممن ناصر الحاكم بيبرس في انقلابه ضد السلطان الناصر محمد بن قلاوون .

قال ابن عبدالهادي حاكياً ما فعله خصوم ابن تيمية : (وأوذي جماعة من أصحابه ، واختفى آخرون ، وعزر جماعة ، ونودي عليهم)[١] .

وقال الإمام الذهبي عن أحد أصحاب ابن تيمية وهو المحدِّث جمال الدين الإسكندري : (أوذي من أجل ابن تيمية وقطع رزقه ، وبالغوا في التحرير عليه)[٢] .

هذا ما جادت به أنفس خصوم ابن تيمية من الأخلاق ، فبعد أن عذبوا وسجنوا تلاميذه وأصحابه ، ساقوه لمحاكمة ظالمة جائرة ، قضاتها هم الأعداء والوشاة ، فالمدعي هو القاضي ، والـمُتَّهِمُ هو الحاكم ، وفي هذا الجوّ المتلبد بالجور لم يمكّن ابن تيمية من الدفاع عن نفسه ، فأمر القاضي ابن مخلوف بحبس ابن تيمية في القلعة ، ومعه أخواه .

ولما رأى شرف الدين –أخو ابن تيمية وكان معه في السجن–

---

(١) العقود الدرية (ص٣٤٦) .

(٢) الرد الوافر (ص١٨٤) .

الظلم الكبير الذي وقع عليهم من قِبل هؤلاء ؛ ابتهل ودعا اللَّه عليهم ، فمنعه ابن تيمية ، وقال له : بل قل : (اللهم هب لهم نوراً يهتدون به)[١] .

ولم يكن ظُلم شيخ الإسلام ابن تيمية وسجنه ليوهن أصحابه وتلاميذه ، بل كان سبباً في زيادة التفاف أصحابه حوله ، ومناصرتهم له ، بل وجعل كثيراً من الناس يتعاطفون معه ، فزاره في سجنه الأمراء والعلماء والجند والفرسان والأصحاب ومن عامة الخلق ، مما زاد غيظ القاضي ابن مخلوف وحنقه وحسده لابن تيمية ، فكتب إلى السلطة ما يلي : (يجب التضييق عليه إن لم يُقتل ، وإلا فقد ثبت كُفْرُه)[٢] .

وطلب المُدعي ابن عدلان قَتْلَ ابن تيمية وذلك بتعزيره التعزير البليغ على مذهب المالكية[٣] .

---

(١) انظر : المنهج الأحمد في ذكر أصحاب الإمام أحمد- العلامة مجير الدين العليمي ، نقلاً عن الجامع (ص ٦٠٦) ، الذيل على طبقات الحنابلة- العلامة ابن رجب الحنبلي ، نقلاً عن الجامع (ص ٤٧٤) .

(٢) انظر : الدرر الكامنة (١/١٨٤) ، والعقود الدرية (ص ٢٦) ، البدر الطالع ، نقلاً عن الجامع (ص ٦٥٢) .

(٣) انظر : نزل من اتقى بكشف أحوال المنتقى ، نقلاً عن الجامع (ص٦٧٥) ، والذيل على طبقات الحنابلة ، نقلاً عن الجامع (ص ٤٧٤) .

قال الإمام الحافظ ابن سيد الناس حاكياً فِعْلَ خصوم ابن تيمية : (وصلوا بالأمراء أمره ، وأعمل كلّ منهم في كُفْرِه فِكْرَه ، فرتبوا محاضر ، وألبوا الرويبضة للسعي بها بين الأكابر ، وسعوا في نقله إلى حاضرة المملكة بالديار المصرية فنقل ، وأودع السجن ساعة حضوره واعتقل ، وعقدوا لإراقة دمه مجالس ، وحشدوا لذلك قوماً من عُمار الزوايا وسكان المدارس ، من مجامل في المنازعة ، مخاتل بالمخادعة ، ومن مجاهر بالتكفير مبارز بالمقاطعة ، يسومونه ريب المنون)[١] .

وقال الإمام الذهبي : (فجرت بينه وبينهم حَملات حربية ، ووقعات شامية ومصرية ، وكم من نوبة قد رموه عن قوس واحدة فينجيه اللّه تعالى ، فإنه دائم الابتهال ، كثير الاستغاثة ، قويُّ التوكل ، ثابت الجأش ، له أوراد وأذكار يدمنها)[٢] .

ولما رأى ابن تيمية أن الأمور متجهة إلى الفتنة ، وأن خصومه يصنعون الأحداث صنعاً لجرِّ المجتمع الإسلامي للاحتراب الداخلي ، والتخاصم بين أصحابه وأنصاره وبين خصومه

---

(١) الرد الوافر (ص ٦٠) .

(٢) الرد الوافر (ص ٧١) .

وأعدائه ، قرر أن يضحي بشخصه ، وأن يدفع الأمور إلى التهدئة ، وأن يقدم المصلحة العامة وهي اجتماع المسلمين ، على المصلحة الخاصة وهي دَفْعُ الظلم الواقع عليه .

يقول ابن تيمية : (وأنا والله من أعظم الناس معاونة على إطفاء كل شر فيها وفي غيرها ، وإقامة كل خير ، وابن مخلوف لو عمل مهما عمل ، والله ما أقدر على خير إلا وأعمله معه ، ولا أعين عليه عدوَّه قط ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، هذه نيتي وعزمي ، مع علمي بجميع الأمور ، فإني أعلم أن الشيطان ينزغ بين المؤمنين ، ولن أكون عوناً للشيطان على إخواني المسلمين)[١] .

وقام ابن تيمية - رحمه الله - بجهد عظيم لإخماد الفتنة التي قامت بين المسلمين ، وقام بإرسال رسالة إلى أصحابه وتلاميذه يحثهم فيها على وحدة المسلمين واجتماع كلمتهم ، وذكَّر أصحابه وإخوانه بتنازله عن حقه الشخصي ، وأنه قد سامح وعفا عن كل من ظلمه أو كذب عليه ، وحذرهم من أن يتعرض أي مسلم لأي أذىً بسببه ، لا لخصومه ولا لمن خذله من أصحابه ، وقَدَّمَ اعتذارات لأكثرهم محسناً فيهم ظنَّه .

---

(١) مجموع الفتاوى : (٣/ ٢٧١) .

قال ابن تيمية : (ما يتعلق بي فتعلمون رضي اللّٰه عنكم أني لا أحب أن يؤذى أحد من عموم المسلمين فضلاً عن أصحابنا بشيء أصلاً لا باطناً ولا ظاهراً ، ولا عندي عتب على أحد منهم ولا لوم أصلاً ، بل لهم عندي من الكرامة والإجلال والمحبة والتعظيم أضعاف ، أضعاف ما كان كل بحسبه ، ولا يخلو الرجل إما أن يكون مجتهداً مصيباً أو مخطئاً أو مذنباً ، فالأول مأجور مشكور ، والثاني مع أجره على الاجتهاد فمعفو عنه ، مغفور له ، والثالث فالله يغفر لنا وله ولسائر المؤمنين)[١] .

وقال لهم أيضاً : (فلا أحب أن ينتصر من أحد بسبب كذبه علي أو ظلمه وعدوانه ، فإني قد أحللت كل مسلم ، وأنا أحب الخير لكل المسلمين ، وأريد بكل مؤمن من الخير ما أحبه لنفسي ، والذين كذبوا وظلموا فهم في حلّ من جهتي ، وأما ما يتعلق بحقوق اللّٰه فإن تابوا تاب اللّٰه عليهم ، وإلا فحكم اللّٰه نافذ فيهم . فلو كان الرجل مشكورًا على سوء عمله لكنت أشكر كل من كان سبباً في هذه القضية ، لما يترتب عليه من خير الدنيا والآخرة ، لكن اللّٰه هو المشكور على حُسْنِ نعمه وآلائه وأياديه

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٥٢) .

التي لا يقضى للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له .. وأنتم تعلمون هذا من خلقي)[١] .

فأي نفس صافية هذه التي كان يتحلى بها ابن تيمية؟ ومن يطيق أن يفعل مثل ذلك؟

وكانت مشيئة اللّه نافذة للانتصار لعباده المخلَصين ، فقد شاء اللّه أن تزول إمارة بيبرس الجاشنكير ويقتل ، ويحمل شيخه الصوفي نصر المنبجي ويموت في زاويته ، ويقع عقاب السلطان الناصر محمد بن قلاوون على كثيرٍ من العلماء الذين ناصروا إمارة الجاشنكير ، والذين كان أكثرهم من خصوم ابن تيمية ، ويضم السلطان ابن قلاوون دمشق ومصر إلى حكمه ، ولم يكن همّ السلطان ابن قلاوون إلا الإفراج عن شيخ الإسلام المسجون ظلماً وزوراً .

فأخرجه السلطان ابن قلاوون معززاً مكرماً مبجلاً ، ووصل الشيخ إلى البلاط السلطاني ، فقام له السلطان تكريماً واحتراماً ووضع يده بيد ابن تيمية ودخلا على كبار علماء مصر والشام ، وفيهم خصوم ومخالفي ابن تيمية ، وأعداء السلطان أيضاً!

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٥٥ - ٥٦) .

وقد كان السلطان ابن قلاوون حانقاً على الفقهاء والقضاة الذين كانوا يوالون بيبرس الجاشنكير ، فأراد أن يقضي عليهم انتقاماً منهم ، ووجد أنهم أنفسهم هم من أفتى بحبس شيخ الإسلام ابن تيمية وكفره وأباح قتله ، فأراد أن يستغل السلطان هذه الفرصة المشتركة بينه وبين ابن تيمية فيستخرج منه فتوى بجواز قَتْلِ هؤلاء القضاة والفقهاء الذين كانوا أعداءً للطرفين ، للسلطان ولابن تيمية .

فاختلى السلطان الناصر ابن قلاوون بشيخ الإسلام ابن تيمية وحدثه عن رغبته في قتل بعض العلماء والقضاة بسبب مناصرتهم لعدوه الجاشنكير ودورهم في الانقلاب ضده ، وبسبب ما أخرجه بعضهم من فتاوى بعزل السلطان الناصر ابن قلاوون ومبايعة بيبرس الجاشنكير . وأخذ السلطان يحث ويشجع ابن تيمية على إصدار فتوى بجواز قَتْلِ هؤلاء العلماء ، ويذكره بأن هؤلاء العلماء هم الذين سجنوه وظلموه واضطهدوه ، بل وكفروه وأهدروا دمه ، وأنها حانت ساعة الانتقام منهم ، ومعاملتهم بالمثل ، والبادئ أظلم .

وأصر السلطان الناصر ابن قلاوون على طلبه ، وأخذ يذكر ابن

تيمية بما اقترفوه بحقه ، مستميلاً نفسه وعواطفه الإنسانية الطبعية كي يخرج فتاوى في جواز قتلهم !

ولعلك – أخي القارئ – تتساءل عن طبيعة رد فعل ابن تيمية ، وهل وجدها فرصة للتنفيس عن خصومته لهم ، ومتنفساً للانتقام من الأعداء ؟

كلا ، فنفس هذا العالم الكبيرة أرفع وأطهر من ذلك ، فلقد قام ابن تيمية بتعظيم هؤلاء العلماء والقضاة ، وأنكر أن ينال أحد منهم بسوء ، وأخذ يمدحهم ويثني عليهم أمام السلطان ، وشفع لهم بنفسه ، وطلب من السلطان أن يعفو ويصفح عنهم ، ومنعه من قَتْلِهم .

وقال للسلطان : (إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم من العلماء الأفاضل) .

فرد عليه السلطان متعجباً متحيراً : (لكنهم آذوك وأرادوا قتلك مراراً) !

فقال ابن تيمية : (من آذاني فهو في حِلّ ، وأنا لا أنتصر لنفسي) .

وما زال ابن تيمية بالسلطان يقنعه أن يعفو ويصفح عنهم ، حتى استجاب له السلطان فأصدر عفوه عنهم وخلّى سبيلهم .

عندها أقبل جَمْعُ الفقهاء يعتذرون ويتأسفون لابن تيمية مما وقع منهم في حقه ، وابن تيمية يقبل اعتذارهم ويقول لهم : قد جعلت الكل في حِلّ !

إنها النفوس الكبيرة التي تستطيع أن تتجاوز حظوظها النفسية ، ومواقفها الشخصية ، وتتجرد عن شهواتها الذاتيَّة ، وتترفع عن خصوماتها ، وتنظر لما هو أهم وأعظم ، وهو ظهور الحق ، وبلوغ الدعوة ، وسلامة الناس ، ووحدة كلمة الأمة ، فتمارس العظمة بكل معانيها ، وهكذا كان ابن تيمية ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ .

ولقد شهد له أكبر خصومه وهو قاضي المالكية القاضي ابن مخلوف ، وهو الذي هاجمه وآذاه ، بل كَفَّرَه واستحلَّ دمه ، فشهد له بعمله الفريد الذي عمله معه ومع أمثاله أثناء غضب السلطان الناصر ابن قلاوون عليهم ، فقال عن ابن تيمية لما سعى للإفراج عنهم :

(ما رأيت كريماً واسع الصدر مثل ابن تيمية ، فقد أثرنا الدولة ضده ، ولكنه عفا عنا بعد المقدرة ، حتى دافع عن أنفسنا وقام بحمايتنا ، حرضنا عليه فلم نقدر عليه ، وقدر علينا فصفح عنا

وحاجج عنا)[1] .

قال الحافظ ابن كثير : (وسمعت الشيخ تقي الدين - ابن تيمية - يذكر ما كان بينه وبين السلطان من الكلام لما انفردا في ذلك الشباك الذي جلسا فيه ، وأن السلطان استفتى الشيخ في قَتْلِ بعض القضاة بسبب ما كانوا تكلموا فيه ، وأخرج له فتاوى بعضهم في عزله من الملك ومبايعة الجاشنكير ، وأنهم قاموا عليك وآذوك أنت أيضاً ، وأخذ يحثه بذلك على أن يفتيه في قَتْلِ بعضهم ، وإنما كان حنقه عليهم بسبب ما كانوا سعوا فيه من عزله ومبايعة الجاشنكير ، ففهم الشيخ مراد السلطان فأخذ في تعظيم القضاة والعلماء ، وينكر أن ينال أحداً منهم بسوء .

وقال له : إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم .

فقال له : إنهم قد آذوك وأرادوا قتلك مراراً .

فقال الشيخ : من آذاني فهو في حِلّ ، ومن آذى اللّه ورسوله فالله ينتقم منه ، وأنا لا أنتصر لنفسي .

وما زال به حتى حلم عنهم السلطان وصفح .

---

(١) انظر : المنهج الأحمد- العلامة العليمي : نقلاً عن الجامع (ص ٦٠٦) ، الذيل على طبقات الحنابلة ، نقلاً عن الجامع (ص ٤٧٨) .

قال : وكان قاضي المالكية ابن مخلوف يقول : ما رأينا مثل ابن تيمية حرضنا عليه فلم نقدر عليه ، وقدر علينا فصفح عنا وحاجج عنا)[١] .

وقال الإمام ابن عبدالهادي : (وسمعت الشيخ تقي الدين ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ يذكر أن السلطان لما جلسا بالشباك أخرج من جيبه فتاوى لبعض الحاضرين في قَتْلِه واستفتاه في قِتْلِ بعضهم .

قال : ففهمت مقصوده وأن عنده حنقاً شديداً عليهم لما خلعوه وبايعوا الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير ، فشرعت في مدحهم والثناء عليهم وشكرهم ، وأن هؤلاء لو ذهبوا لم تجد مثلهم في دولتك ، أما أنا فهم في حل من حقي ومن جهتي ، وسكنت ما عنده عليهم .

قال : فكان القاضي زين الدين ابن مخلوف قاضي المالكية يقول بعد ذلك : ما رأينا أتقى من ابن تيمية لم نبق ممكناً في السعي فيه ، ولما قدر علينا عفا عنا)[٢] .

وقال ابن كثير : (وجاء الفقهاء يعتذرون مما وقع منهم في حقه

---

(١) البداية والنهاية (١٤/ ٦١) .

(٢) العقود الدرية (ص ٢٩٨ - ٢٩٩) .

- أي ابن تيمية - فقال : قد جعلت الكل في حلّ)[١] .

فانظر - أخي القارئ - بعين الإنصاف لفعل هذا الرجل الذي ظلمه هؤلاء وسجنوه وكفروه بل وأهدروا دمه ، فلما ظهر عليهم ، وتمكن منهم ومن رقابهم ، وكانت رغبة السلطان الشخصيَّة في قَتْلِهم ، ولو سكت لربما قُتلوا ، ولكنه دافع عنهم وحاجج عنهم ، وجادل السلطان في شأنهم ، حتى أقنعه بذلك فعفا عنهم وخلَّى سبيلهم !

فهل في الدنيا أعظم وأكبر من تلك الشهادة على تسامحه وعدله ورحمته بالمخالفين ؟

❊ ❊ ❊ ❊

---

(١) البداية والنهاية (١٤/ ٦١) .

المبحث الثالث

موقف ابن تيمية من بعض خصومه لما بلغه وفاتهم

الإنسان - في الغالب - يفرح إذا سمع بموت أحد خصومه ، وأحياناً يتشفى بذلك ، ويشرع بذكر مساوئ خصمه ، ويطلق لسانه فيه شتماً وسباً ، لأن الميت لا حول له ولا قوة ، فقد انتقل إلى ربه ، وهو رهينة عمله ، فلا لسان له لينطق ، ولا يد له فيدفع عن نفسه ، فالنيل منه سهل ميسور للنفوس الضعيفة .

لكن ابن تيمية في مواقفه يختلف عن هؤلاء ، فلقد بلغه يوماً وفاة أشد خصومه عداوة له وهجوماً عليه ، حيث كان يُكفره ويستحلُّ دمه ، بلغه ذلك عن طريق أحد أصحابه كبشارة له!

فماذا كان موقف شيخ الإسلام ابن تيمية من تلك البشارة ؟

تأمل - أخي القارئ - كلام تلميذه ابن القيم حينما عقد فصلاً بعنوان (منزلة الفتوة) وتحدث فيه عن تلك المنزلة ، وأن حقيقتها الإحسان إلى الناس وكفّ الأذى عنهم واحتمال أذاهم ، فهي منزلة استعمال الأخلاق الكريمة مع جميع الناس صديقهم وعدوهم ، ثم تحدث عن درجاتها ، إلى أن قال : (الدرجة الثانية :

أن تُقرب من يقصيك ، وتكرم من يؤذيك ، وتعتذر إلى من يجني عليك ، سماحة لا كظماً ، ومودة لا مصابرةً ، هذه الدرجة أعلى مما قبلها وأصعب فإن الأولى تتضمن تَرْكِ المقابلة والتغافل ، وهذه تتضمن الإحسان إلى من أساء إليك ، ومعاملته بضد ما عاملك به ، فيكون الإحسان والإساءة بينك وبينه خطتين ، فخطتك الإحسان وخطته الإساءة ، وفي مثلها قال القائل :

إذا مرضنا أتيناكم نَعُودكم   وتذنبون فنأتيكم ونَعْتذر

ومن أراد فهم هذه الدرجة كما ينبغي فلينظر إلى سيرة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم- مع الناس يجدها هذه بعينها ، ولم يكن كمال هذه الدرجة لأحد سواه ، ثم للورثة منها بحسب سهامهم من التركة .

وما رأيت أحداً قط أجمع لهذه الخصال من شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - وكان بعض أصحابه الأكابر يقول : وددت أني لأصحابي مثله لأعدائه وخصومه . وما رأيته يدعو على أحد منهم قط ، وكان يدعو لهم ، وجئت يوماً مبشراً له بموت أكبر أعدائه وأشدهم عداوة وأذى له ، فنهرني وتنكر لي واسترجع ، ثم قام من فوره إلى بيت أهله فعزاهم ، وقال : إني

لكم مكانه ، ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلى مساعدة إلا وساعدتكم فيه ، ونحو هذا من الكلام ، فسروا به ودعوا له وعظموا هذه الحال منه ، فرحمه اللّٰه ورضي عنه)[١] .

۞ ۞ ۞ ۞

---

(١) مدارج السالكين- تحقيق : محمد حامد الفقي (٢/ ٣٤٠) الطبعة الثانية ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٣٩٣هـ .

المبحث الرابع

روح الرحمة والتسامح عند ابن تيمية تجاه الجميع

لقد أنعم اللَّه على شيخ الإسلام بنفسٍ كبيرة وقلبٍ سالمٍ من الأحقاد قل أن يوجد مثله عن غيره من علماء زمانه ، فما كان يحمل في قلبه غلاً ولا حسداً ولا حقداً على أحد ، بل ولا على خصومه ، بل كان سائراً على منهج السلف في الرحمة والعدل بالمخالفين .

قال ابن تيمية : (فأهل السنة يستعملون معهم -أي المخالفين- العدل والإنصاف ، ولا يظلمونهم ، فإن الظلم حرام مطلقاً)(١) .

وقال ابن القيم عن ابن تيمية : (كان بعض أصحابه الأكابر يقول : وددت أني لأصحابي مثله لأعدائه وخصومه . وما رأيته يدعو على أحد منهم قط ، وكان يدعو لهم)(٢) .

ولما وقف منه القاضي ابن مخلوف موقف العداء ورماه بكل قوس في جعبته ، وأثار عليه العوام والحكام وأصدر ضده الأحكام والفتاوى التي أثارت الفتنة بين الناس واجتهد غاية

---

(١) منهاج السنة النبوية (٥/ ١٥٧- ١٥٨) .

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٣٤٠) .

الاجتهاد في قتله ، وابن تيمية صابر محتسب يقابل السيئة بالحسنة ، ولم يحمل في نفسه حقداً ولا بغضاً لهذا الرجل .

يقول ابن تيمية معبراً عن نفسيته المتسامحة : (وابن مخلوف لو عمل مهما عمل والله ما أقدر على خير إلا وأعمله معه ، ولا أعين عليه عدوه قط ، ولا حول ولا قوة إلا بالله هذه نيتي وعزمي)[١] .

وقال في رسالة كتبها وهو في السجن إلى تلاميذه ومحبيه ، يتحدث عن خصومه الذين تسببوا في دخوله السجن ، وكانوا سبباً في مصادرة كتبه :

(أنا أحب لهم أن ينالوا من اللذة والسرور والنعيم ما تقر به أعينهم ، وأن يفتح لهم من معرفة اللّه وطاعته والجهاد في سبيله ما يصلون به إلى أعلى الدرجات)[٢] .

وقال معبراً عن روحه الطيبة المحبة لجميع المسلمين : (وأنا أحب الخير لكل المسلمين وأريد لكل مؤمن من الخير ما أحبه لنفسي)[٣] .

---

(١) مجموع الفتاوى : (٣/ ٢٧١) .

(٢) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٤١) .

(٣) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٥٥) .

بل إن روحه الطيبة العادلة المتسامحة شملت حب الخير للإنسانية جمعاء ، فقد قال في رسالة وجهها للملك النصراني (سرجون) حاكم قبرص : (نحن قوم نحب الخير لكل أحد ، ونحب أن يجمع اللَّه لكم خير الدنيا والآخرة)[١] .

وكان سبب هذا الرسالة التي بعث بها إلى ملك قبرص وجود أسرى من عامة المسلمين بأيدي النصارى ، فأرسل له ابن تيمية طالباً منه أن يفكَّ أسرى المسلمين جميعاً ، وأن يحسن إليهم ، مذكراً ملك قبرص بما فعله ابن تيمية شخصياً حينما جادل ملك التتار ليفك أسر المأسورين من النصارى وأهل الكتاب رحمة بهم ، وإحساناً إليهم كما أمر الإسلام ، وهذا الموقف كان ابتداءً من ابن تيمية ، ولم يكن خاصاً لأجل المساومة والمعاوضة ، فلم يذكره إلا بعد أن احتاج إليه لينفع المسلمين .

قال ابن تيمية : (وقد عرف النصارى كلهم أني لما خاطبت التتار في إطلاق الأسرى ، وأطلقهم غازان ، وقطلوشاه ، وخاطبت مولاي فيهم فسمح بإطلاق المسلمين . قال لي : لكن معنا

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٦١٥) .

نصارى أخذناهم من القدس ، فهؤلاء لا يطلقون . فقلت له : بل جميع من معك من اليهود والنصارى ، الذي هم أهل ذمتنا ؛ فإنا نفتكهم ، ولا ندع أسيراً ، لا من أهل الملة ، ولا من أهل الذمة . وأطلقنا من النصارى من شاء اللّٰه فهذا عملنا وإحساننا ، والجزاء على اللّٰه)[١] .

ثم بيّن للملك القبرصي منهج المسلمين في التعامل مع غير المسلمين فقال : (الذي بأيدينا من النصارى يعلم كل أحد إحساننا ورحمتنا بهم ؛ كما أوصانا خاتم المرسلين صلى اللّٰه عليه وآله وسلم)[٢] .

ثم أبدي ابن تيمية تألمه وامتعاضه تجاه تعامل القبرصيين مع أسرى المسلمين ، فقال : (فيا أيها الملك كيف تستحل سفك الدماء ، وسبي الحريم ، وأخذ الأموال بغير حجة من اللّٰه ورسله ، ثم أما يعلم الملك أن بديارنا من النصارى أهل الذمة والأمان مالا يحصى عددهم إلا اللّٰه ، ومعاملتنا فيهم معروفة ، فكيف يعاملون أسرى المسلمين بهذه المعاملات التي لا

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٦١٧- ٦١٨) .

(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٦١٨) .

يرضى بها ذو مروءة ولا ذو دين)[١] .

فانظر كيف كان ابن تيمية - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - حريصاً على المسلمين كلهم ، رحيماً ورفيقاً بهم ، وامتدت رحمته وعدالته إلى غير المسلمين ؛ لأن منهجه العام محبة الخير للإنسانية جمعاء .

وفي آخر حياته - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - لما تجدد عليه الظلم وسجن طلب من الجميع منهج الإنصاف والعدل مع كافة الناس ، سواءً كانوا مسلمين أو غير مسلمين ، وطالب حكام الإسلام وعلماء الدين بالعدل مع المخالفين مهما كانوا ، رافضاً الظلم الذي وقع عليه أو على غيره ، وأن يكون هذا منهجاً ثابتاً وراسخاً ، لأنه من منهج الإسلام .

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ : (فإنه في آخر شهر رمضان سنة ست وعشرين وسبعمائة ، جاء أميران رسولان من عند الملأ المجتمعين من الأمراء والقضاة ومن معهم ، وذكرا رسالة من عند الأمراء ، مضمونها طلب الحضور ، ومخاطبة القضاة لتخرج وتنفصل القضية ، وأن المطلوب خروجك ، وأن يكون الكلام مختصراً ، ونحو ذلك .

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٦٢٢) .

فقلت : سِلِّم على الأمراء ، وقل لهم : لكم سَنَة ، وقبل السَّنَة مدة أخرى تسمعون كلام الخصوم في الليل والنهار ، وإلى الساعة لم تسمعوا مني كلمة واحدة ، وهذا من أعظم الظلم ، فلو كان الخصم يهودياً أو نصرانياً أو عدواً آخر للإسلام ولدولتكم ؛ لما جاز أن تحكموا عليه حتى تسمعوا كلامه ، وأنتم قد سمعتم كلام الخصوم وحدهم في مجالس كثيرة ، فاسمعوا كلامي وحدي في مجلس واحد ، وبعد ذلك نجتمع ونتخاطب بحضوركم ، فإن هذا من أقل العدل الذي أمر اللّٰه به في قوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾)(١) .

❖ ❖ ❖ ❖

(١) التسعينيّة – ابن تيمية ، تحقيق : د . محمد العجلان (١/١١٠) ، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع .

المبحث الخامس

حرصه على وحدة المسلمين ، وجمع كلمتهم

ومن الميز والخصائص المهمة في ابن تيمية تغليبه للمصلحة العامة المتمثلة في وحدة الصف الإسلامي ، وجمع الكلمة ، ورأب الصدع ، ونبذ الاختلاف ، وهذه الميزة مبثوثة في أقواله ومشهود لها من أفعاله وسيرته ، و كان - رحمه الله - حريصاً على تقارب المسلمين ، ليس بالعبارات الخاوية ، ولا بالمؤتمرات الشكلية ، بل بمنهج عملي أصيل ، كان له دور كبير في توحيد الصف الإسلامي في وجه المخاطر التي تحدق بهم(١) .

فقد أرسل ابن تيمية رسالة إلى إخوانه وأصحابه بدمشق ، يحثهم فيها على الوحدة الإسلامية ، ويدعوهم إلى اجتماع الكلمة ، وإصلاح ذات البين . ومما قاله فيها :

---

(١) أقول : مما يؤسف له أنه يوجد في العالم الإسلامي طائفة دأبت منذ سنوات كثيرة على رفع شعارات الوحدة والتقارب بين المسلمين ، ونشطت بهذه الدعوة حال ضعفها ، وأخذت تؤسس المكاتب الخاصة بذلك في بلاد أهل السنة والجماعة دون بلادهم (!!) وأخذت تدعو لمؤتمرات الوحدة ، وبعد سنوات أكتشف كثير من المنخدعين بتلك الدعوة -بعد غفلة طويلة- أن المقصود بدعوى الوحدة والتقارب هو تحول أهل السنة من مذهبهم إلى مذهب آخر!

(وتعلمون أن من القواعد العظيمة التي هي من جماع الدين تأليف القلوب واجتماع الكلمة وصلاح ذات البين ، فان اللّه تعالى يقول : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ ، ويقول : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ ، ويقول : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ وأمثال ذلك من النصوص التي تأمر بالجماعة والائتلاف وتنهى عن الفرقة والاختلاف ، وأهل هذا الأصل هم أهل الجماعة كما أن الخارجين عنه هم أهل الفرقة)(١) .

وقال ابن تيمية مبيناً تجربته الشخصية والعملية : (والناس يعلمون أنه كان بين الحنبلية والأشعرية وحشة ومنافرة ، وأنا كنت من أعظم الناس تأليفاً لقلوب المسلمين وطلباً لاتفاق كلمتهم واتباعاً لما أمرنا به من الاعتصام بحبل اللّه و أزلت عامة ما كان في النفوس من الوحشة ، وبينت لهم أن الأشعرى كان من أَجَلِّ المتكلمين المنتسبين إلى الإمام أحمد - رحمه الله - ونحوه المنتصرين لطريقه كما يذكر الأشعري ذلك في كتبه .. وفرح المسلمون باتفاق الكلمة وأظهرتُ ما ذكره ابن عساكر في

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٥١) .

مناقبه ، أنه لم تزل الحنابلة والأشاعرة متفقين إلى زمن القشيرى ، فإنه لما جرت تلك الفتنة ببغداد تفرقت الكلمة)[١] .

وبيَّن لأصحابه وتلاميذه منهجه الذي يسير عليه تجاه المسلمين ، والذي لا يحيد عنه ، هو تقديم مصلحة المسلمين ، وإحسان الظن بهم ، حيث قال : (وأنا والله من أعظم الناس معاونة على إطفاء كل شر فيها - أي فتنة خصومه - وفي غيرها ، وإقامة كل خير)[٢] .

وفي اللحظات الأخيرة من حياته - رحمه الله - مرض أياماً في محبسه الأخير في القلعة ، فعلم بمرضه أحد وجهاء الدولة وهو شمس الدين الوزير ، فجاءه يستأذنه في الدخول عليه لعيادته ، فأذن الشيخ له في ذلك ، فلما جلس عنده أخذ الوزير يعتذر له عن نفسه ، ويلتمس منه أن يحلّه مما عساه أن يكون قد وقع منه

---

(١) مجموع الفتاوى (١ / ٤٨-٤٩) .

(٢) مجموع الفتاوى : (٣/ ٢٧١) . أقول : كانت خصلة ابن تيمية الفريدة هي رحمة الخلق والتجرد عن حظوظ النفس ، وهمه الأكبر هو جمع كلمة الأمة ، وكان كثير الاعتذار عن الفقهاء والعلماء ، يحسن الظن في المسلمين ، حتى ألف كتابه الفريد (رفع الملام عن الأئمة الأعلام) ملتمساً العذر للأئمة والفقهاء في الاختلاف ، ومعظماً للعلم وأهله ، ومحترماً أهل الاجتهاد والفقه .

في حق الشيخ من تقصير أو غيره .

فأجابه ابن تيمية بقوله : إني قد أحللتُك وجميع من عاداني وهو لا يعلم أني على الحق .

وقال له أيضاً : إني قد أحللت السلطان الناصر ابن قلاوون من حبسه إياي لكونه فعل ذلك مقلداً غيره معذوراً ، ولم يفعله لحظّ نفسه ، بل لما بلغهُ مما ظنه حقاً من مُبلِّغه ، والله يعلم أنه بخلافه . ثم قال : قد أحللتُ كلَّ واحدٍ مما كان بيني وبينه[١] .

ولم يبق ابن تيمية طويلاً بعد ذلك ، حيث وافته المنية وهو في السجن ، مظلوماً من قِبَل أعدائه ، وهو صابر محتسب أجره عند اللّه ، مات وليس في قلبه ذرة كراهية تجاه أي مسلم ، مات بعد أن سامح الجميع ، مات وهو راضٍ عن نفسه التي طالما تخلت عن حظوظها الذاتية في سبيل الأمة المسلمة .

۞ ۞ ۞ ۞

---

(١) انظر : الأعلام العليّة (ص٧٤-٧٥) .



الفصل الخامس
موقف الشيعة من المخالفين كأنموذج

من عيوب أهل البدع تكفير بعضهم بعضًا، ومن ممادح أهل العلم أنهم يُخطِّئون ولا يُكَفِّرون .

ابن تيمية : منهاج السنة النبوية (٥/٢٥١)

تمهيد

مرَّ معك - أخي القارئ - في الفصلين السابقين موقف شيخ الإسلام ابن تيمية - رَحِمَهُ اللَّهُ - من مسألة التكفير ، وموقفه النظري من المخالفين ، ثم سيرته العملية وسلوكه التطبيقي لآرائه وأقواله النظرية . وقد تبيَّن لكل منصف مدى اعتدال أقوال ابن تيمية ، وانضباطها بمنهج أهل السنة والجماعة ، كما تبيَّن لنا عظمة روح التسامح والعدالة والرحمة التي كان يتحلى بها ابن تيمية تجاه المخالفين والخصوم .

وحتى تكتمل الصورة بشكل صحيح لا بد أن نعرض - أخي القارئ الكريم - نماذج ونصوص يسيرة وسريعة لموقف إحدى الفرق الإسلامية من المخالفين والخصوم ، حتى نستطيع أن نرى المشهد كله ، والصورة كلها ، ويصدق ويتحقق قول الشاعر :

والضِدُّ يُظهر حُسنه الضدُ وبِضدها تَتَباين الأشياء

وذلك لأن بعض الدراسات المعاصرة - لأسباب طائفية أو هوىً - جعلت عقيدة أهل السنة والجماعة بشكل عام ، وابن تيمية بشكل خاص في قفص الاتهام ، وجعلت منهما مصدراً وينبوعاً للتكفير ، وذهبت تختزل الأقوال من سياقاتها ، وتبتر

المقولات ، وتعمم الخاص ، وتنقل جنس المقولة إلى المعيَّن ، فخلطت الأمور -عمداً أو جهلاً- وانتهت إلى رسم صورة سوداء قاتمة لعقيدة أهل السنة والجماعة ولابن تيمية!

وفي المقابل رسمت صورة مشرقة وجميلة للفرق الأخرى ، وصوَّرتها على أنها العقلانية ، والمعتدلة ، والمتسامحة ، والبعيدة عن روح التكفير والإقصاء والأُحاديَّة . فقلبت الحقائق رأساً على عقب ، وجعلت المعتدل الذي هو ضحيَّة التكفير هو المُكفِّر ، والظالم المتعدي بالتكفير على الآخرين معتدلاً متسامحاً!

وصدق ابن تيمية حينما قال : (والخوارج تكفر أهل الجماعة ، وكذلك المعتزلة يكفرون من خالفهم ، وكذلك الرافضة ، ومن لم يكفر فسق ، وكذلك أكثر أهل الأهواء يبتدعون رأياً ويكفرون من خالفهم فيه ، وأهل السنة يتبعون الحق من ربهم الذي جاء به الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - ولا يكفرون من خالفهم فيه ، بل هم أعلم بالحق وأرحم بالخلق)[١] .

ونحن هنا نضع بين يديك - أيها القارئ الكريم - بعض الأمثلة والنماذج الموثقة لمقولات بعض شيوخ الشيعة ومواقفه من

---

(١) منهاج السنة (٥/١٥٨) .

المخالفين ، لتحكم بنفسك من خلال المقارنة العادلة والمنصفة .

فرقة الشيعة الجعفرية الإماميّة كأنموذج للمخالفين(١)

أقول وبدون مبالغة – بل من خلال قراءتي لكثير من مدونات

---

(١) **أقول** : من أمنيات المسلمين اليوم تحقيق الوحدة الإسلامية والتقارب الحقيقي بين المذاهب الإسلامية المختلفة على الحق ، ولكن من أهم المشكلات المستعصية مشكلة (التقيّة) عند الشيعة ، والتي تُعيق دائماً عمليات التقارب الصادقة بين المسلمين ؛ لأنهم بواسطة هذه العقيدة يظهرون لنا ما لا يبطنون ويوهموننا بخلاف ما يعتزمون فعله على أرض الواقع ويعطوننا من اللسان حلاوة لكن على أرض الواقع تتجسد المرارة بأبشع طعم ، كل ذلك انطلاقا من عقيدة « التقية » والتي يعظمونها ويجعلون منها حقيقة الدين والإيمان !!

فعن الصادق يروون أنه قال : (إن تسعة أعشار الدين في التقية ، ولا دين لمن لا تقية له) . البحار (٤٨٦/٦٦) ، والخصال (١٤/١) ، والمحاسن (ص٢٥٩) الكافي (٢١٧/١) ، والوسائل (٢٠٤/١٦) .

ورووا عن الرضا أنه قال : (لا دين لمن لا ورع له ، ولا إيمان لمن لا تقية له ، إن أكرمكم عند الله أعملكم بالتقية) . البحار (٣٩٥/٧٥) وكمال الدين (ص ٣٤٦) ونور الثقلين (٤٧/٤) ومنتخب الأثر (ص٢٢٠) .

بل يرتبون على (التقيّة) أعظم الأجر ، وأنها أفضل عبادة تقدم في مذهب التشيع ويسمونها (الخبء) ! فقد رووا عن الصادق أنه قال : (ما عُبِدَ الله بشيءٍ أحب إليه من الخبء ، قيل : وما الخبء ؟ قال : التقية) . البحار (٣٩٦/٧٥) ومعاني الأخبار (ص ١٦٢) والوسائل (٢٠٧/١٦ ، ٢١٩) .

وعنه أيضا قال : (إنكم علي دين من كتمه أعزه الله ومن أذاعه أذله الله) . البحار (٣٩٧/٧٥) ، والمحاسن (ص٤١٢) ، وجامع الأخبار (ص ٢٥٧) =

التراث الشيعي القديم والمعاصر - إن مسألة تكفير المخالفين ، وتجويز اغتيالهم ، والبراءة منهم ، والوقيعة في أعراضهم ، ولعنهم

= ورسائل الخميني (٢/١٨٥) .

ويوجبون (التقيَّة) في دار أهل السنة التي يسمونها (دار التقيَّة) فعن الصادق أنه قال : (استعمال التقية في دار التقية واجب ، ولا حنث ولا كفارة على من حلف تقية) . البحار (٧٥/٣٩٤-٣٩٥) ، والخصال (٢/١٥٣) وعيون أخبار الرضا (٢/١٢٤) والوسائل (١٥/٥٠) .

وعن الصادق - أيضاً - أنه قال : (عليكم بالتقية فإنه ليس منا من لم يجعله شعاره ودثاره مع من يأمنه لتكون سجيته مع من يحذره) . البحار (٧٥/٣٩٥) وأمالي الطوسي (ص ٢٩٩) .

وهذا شيخهم (الصدوق) يقول : (اعتقادنا في التقية أنها واجبة ، من تركها بمنزلة من ترك الصلاة ، ولا يجوز رفعها إلى أن يخرج القائم ، فمن تركها قبل خروجه فقد خرج عن دين الله وعن دين الإمامية وخالف الله ورسوله والأئمة) . الاعتقادات (١١٤) . ويقول علامتهم (العاملي) : (الأخبار متواترة صريحة في أن التقية باقية إلى أن يقوم القائم) . مرآة الأنوار (ص٣٣٧) .

ويقول إمامهم في هذا العصر (الخميني) : (وترك التقية من الموبقات التي تلقي صاحبها قعر جهنم وهي توازي جحد النبوة والكفر بالله العظيم) . المكاسب المحرمة (٢/١٦٢) .

ثم عندهم نوع غريب من التقية وهي (التقية المداراتية) والتي تمثل وجهاً دعائياً للتشيع ، من خلاله يمكن للتشيع أن يدخل الصف السني ، ويروج للتشيع ! فهذا (الخميني) يعدد أنواع التقية ويذكر أن منها (التقية المداراتية) وعرفها بقوله (وهو تحبيب المخالفين وجر مودتهم من غير خوف ضرر) . الرسائل - للخميني (٢/١٧٤) . وقال : إن التقية واجبة من المخالفين ، ولو كان مأمونا وغير =

واستحلال غيبتهم ، لا توجد في أي مذهب أو طائفة مثل ما توجد في المذهب الشيعي ، كثرة وتدليلاً وتعضيداً وقبولاً[(١)] !

فالباحث الحيادي يُذهل ويُصدم بسبب الكم الهائل من النصوص والأقوال التي تقرر هذه العقيدة تجاه المخالفين من المسلمين ، بل وينقلون الإجماع عليها[(٢)] .

ونكتفي هنا بعرض نصوصٍ قليلة لبيان هذه المسألة عند الشيعة ، كما يلي :

= خائف على نفسه وغيره . الرسائل (٢/٢٠١) . ويقول شيخهم (محسن الخرازي) : (وقد تكون التقية مداراةً من دون خوف وضرر فعلي لجلب مودة العامة والتحبيب بيننا وبينهم) . بداية المعارف الإلهية (ص٤٣٠) .

ويقول علامتهم (دستغيب) : (ومنها التقية المستحبة وتكون في الموارد التي لا يتوجه فيها للإنسان ضرر فِعلي وآني ، ولكن من الممكن أن يلحقه الضرر في المستقبل ، كترك مداراة العامة ومعاشرتهم) . أجوبة الشبهات (ص ١٥٩) .

(١) لن أتعرض في هذا المبحث لموقف الشيعة من أمهات المؤمنين عليهن السلام ، ومن الصحابة رضوان الله عليهم ، وتكفير الشيعة لعمومهم ، فموقف الشيعة من الصحابة معروف وواضح وجلي ، ومجمع عليه عندهم ، وهو من ضروريات مذهبهم ، ومن أراد معرفة عقيدتهم في ذلك فليراجع الكتب المختصة ، وسيجد اتفاق الشيعة على ردة الصحابة وكفرهم إلا قلة قليلة تعد على أصابع اليد ، وأن ذلك من ضروريات قولهم بالإمامة الإلهيّة ، وما ما يُذكر سوى ذلك فما هو إلا تقيّة ومخادعة !

(٢) **أقول** : لعلي إن شاء الله أخصصُ كتاباً مستقلاً في هذا الموضوع .

المبحث الأول

موقفهم من عموم الفرق الإسلامية المخالفة

يقول الشيخ المفيد - شيخ الشيعة في عصره - حاكياً إجماع الشيعة في موقفهم تجاه المخالفين :

(اتفقت الإمامية على أن أصحاب البدع كلهم كفار ، وأنّ على الإمام أن يستتيبهم عند التمكن بعد الدعوة لهم وإقامة البينات عليهم ، فإن تابوا عن بدعهم وصاروا إلى الصواب ، وإلا قتلهم لردتهم عن الإيمان ، وأن من مات منهم على تلك البدعة فهو من أهل النار)(١) .

وهذا علّامتهم ومحققهم عبدالله شُبر ، يبيِّن حكم جميع الفرق الإسلامية -حتى المسالمة منها- عند علماء الشيعة ، فيقول :

(وأما سائر المخالفين ممن لم ينصب ولم يعاند ولم يتعصب ، فالذي عليه جملة من الإمامية كالسيد المرتضى أنهم كفار في الدنيا والآخرة ، والذي عليه الأكثر الأشهر أنهم

(١) أوائل المقالات في المذاهب والمختارات- محمد بن محمد بن النعمان الملقب بالمفيد (ص٥١ -٥٢) دار الكتاب الإسلامي - بيروت .

كفار مخلدون في الآخرة)[١] .

وقال شيخهم وعلامتهم نعمة اللَّه الجزائري مبيناً حقيقة حجم الخلاف - كما يراه هو - بين الشيعة والسنة : (لم نجتمع معهم على إله ولا نبي ولا على إمام ، وذلك أنهم يقولون : إن ربهم هو الذي كان محمد ﷺ نبيه ، وخليفته بعده أبو بكر ، ونحن لا نقول بهذا الرب ولا بذلك النبي ، بل نقول : إن الرب الذي خليفة نبيه أبو بكر ليس ربنا ولا ذلك النبي نبينا)[٢] .

وإذا كانت جميع الفرق الإسلامية المخالفة للشيعة هذه هي حالتهم ، فماذا يترتب على ذلك؟ وبأي معاملة يمكن أن يتعامل معهم؟ يجيب علماء الشيعة فيقولون :

قال الخميني عن المسلم غير الشيعي :

(غيرنا ليسوا بإخواننا وإن كانوا مسلمين .. فلا شبهة في عدم احترامهم بل هو من ضروري المذهب كما قال المحققون ، بل

---

(١) حق اليقين في معرفة أصول الدين- عبدالله شبر (ص٥١٠) موسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت .

(٢) الأنوار النعمانية- نعمة الله الجزائري (٢٧٩/٢) ، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت - لبنان .

الناظر في الأخبار الكثيرة في الأبواب المتفرقة لا يرتاب في جواز هتكهم والوقيعة فيهم ، بل الأئمة المعصومون ، أكثروا في الطعن واللعن عليهم وذكر مساوئهم)[١] .

ثم أورد الخميني هذه الرواية : (عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام ، قال : قلت له : إن بعض أصحابنا يفترون ويقذفون من خالفهم . فقال : الكف عنهم أجمل . ثم قال : يا أبا حمزة إن الناس كلهم أولاد بغاة - أي أولاد زنا - ما خلا شيعتنا)[٢] .

فقال الخميني معلقاً على تلك الرواية : (الظاهر منها جواز الافتراء والقذف عليهم)[٣] !

وقال شيخهم الأنصاري : (ظاهر الأخبار اختصاص حرمة الغيبة بالمؤمن - أي الشيعي - فيجوز اغتياب المخالف ، كما يجوز لعنه)[٤] .

---

(١) المكاسب المحرمة - الخميني (١ / ٢٥١) الطبعة الثالثة ١٤١٠هـ ، مطبعة إسماعيليان ، قم .

(٢) المكاسب المحرمة (١ / ٢٥١) .

(٣) المكاسب المحرمة (١ / ٢٥١) .

(٤) كتاب المكاسب- الأنصاري (١/ ٣١٩) الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ، مطبعة باقري ، قم .

ونسبوا كذباً إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم أنه قال : (إذا رأيتم أهل الريب والبدع من بعدي فأظهروا البراءة منهم ، وأكثروا من سبّهم ، والقول فيهم والوقيعة ، وباهتوهم كيلا يطمعوا في الفساد في الإسلام ويحذرهم الناس ، ولا يتعلمون من بدعهم ، يكتب اللّه لكم بذلك الحسنات ، ويرفع لكم به الدرجات في الآخرة)[١] .

وهذه الرواية صححها الشهيد الثاني[٢] ، ومحققهم الأردبيلي[٣] ، وعبدالله الجزائري[٤] ، وقال بتصحيحها أيضاً محققهم البحراني حيث قال : (ورد في جملة من الأخبار جواز الوقيعة في أصحاب البدع ومنهم الصوفية ، كما رواه في الكافي في الصحيح)[٥] ، ومحققهم النراقي حيث قال بعد تصحيح الرواية السابقة : (فتجوز غيبة المخالف ، والوقيعة : الغيبة .. وتؤكده النصوص المتواترة الواردة عنهم في طعنهم ولعنهم

(١) الكافي- الكليني : (٣٦٠/٢) .

(٢) مسالك الأفهام (٤٣٤/١٤) .

(٣) مجمع الفائدة (١٦٣/١٣) .

(٤) التحفة السنية (ص٣١) .

(٥) الحدائق الناضرة (١٦٤/١٨) .

وتكفيرهم ، وأنهم شرّ من اليهود والنصارى ، وأنجس من الكلاب)[١] ، وكذلك شيخهم الأنصاري[٢] ، ومرجعهم الأكبر الخوئي حيث قال : (قد دلت الروايات المتضافرة على جواز سبِّ المبتدع في الدين ووجوب البراءة منه واتهامه)[٣] .

كما صححها - أيضاً - مرجعهم الكلبايكاني حيث قال : (وأما المبتدع فيجوز ذكره بسوء ؛ لأنه مستحق للاستخفاف)[٤] ومرجعهم محمد سعيد الحكيم[٥] ، و الروحاني[٦] ، والطريحي حيث قال معلقاً : (فاعلم أنه لا ريب في اختصاص تحريم الغيبة بمن يعتقد الحق ، فإن أدلة الحكم غير متناولة لأهل الضلال كتاباً ولا سنة)[٧] ، وعلّامتهم المجلسي[٨] .

---

(١) مستند الشيعة (١٦٢/١٤) .

(٢) المكاسب (٣٥٣/١) .

(٣) مصباح الفقاهة (٢٨١/١) .

(٤) الدر المنظور (١٤٨/٢) .

(٥) مصباح المنهاج (ص٣٥٩) .

(٦) فقه الصادق (٢٩٦/١٤) .

(٧) مجمع البحرين (٣٤٣/٣)

(٨) بحار الأنوار (٢٣٥/٧٢) .

قال مرجعهم المعاصر الخوئي : (ثبت في الروايات والأدعية والزيارات جواز لعن المخالفين ووجوب البراءة منهم ، وإكثار السب عليهم ، واتهامهم ، والوقيعة فيهم : أي غيبتهم ، لأنهم من أهل البدع والريب . بل لا شبهة في كفرهم)[١] .

ثم قال بعدها : (الوجه الثالث : أن المستفاد من الآية والروايات هو تحريم غيبة الأخ المؤمن ، ومن البديهي أنه لا أخوة ولا عصمة بيننا وبين المخالفين)[٢] .

وقال سيدهم الروحاني : (جواز غيبة المخالف من المسلّمات عند الأصحاب)[٣] .

ويقول شيخهم الصادق الموسوي معلقاً على رواية منسوبة للسجاد تشبه ما نسبوه لنبينا الأعظم صلى اللّه عليه وآله وسلم : (إن الإمام السجاد يجيز كل تصرف بحق أهل البدع .. من قبيل البراءة منهم وسبهم وترويج شائعات السوء بحقهم والوقيعة والمباهتة ، كل ذلك حتى لا يطمعوا في الفساد في الإسلام وفي

---

(١) مصباح الفقاهة (٥٠٤/١) .

(٢) مصباح الفقاهة (٥٠٥/١) .

(٣) فقه الصادق (٣٤٥/١٤) .

بلاد المسلمين وحتى يحذرهم الناس لكثرة ما يرون وما يسمعون من كلام السوء عنهم هكذا يتصرف أئمة الإسلام لإزالة أهل الكفر والظلم والبدع فليتعلم المسلمون[١] من قادتهم وليسيروا على منهجهم)[٢] !!

۞ ۞ ۞ ۞

---

(١) أقول : انظر أخي المسلم كيف يحث هذا الشيخ الشيعي عموم الشيعة للسير على منهج السب وترويج شائعات السوء والوقيعة والكذب على الآخرين ، والبراءة من المسلمين المخالفين لهم!

(٢) نهج الانتصار (ص ١٥٢) . وانظر : تنبيه الخواطر (٢ / ١٦٢) ، وسائل الشيعة (١١ /٥٠٨) .

المبحث الثاني

موقفهم من الأشاعرة

موقفهم من الأشاعرة - خصوصاً - لا يختلف عن سائر مواقفهم من عموم أهل السنة ، من حيث الشدة والغلو في التكفير والإخراج عن دائرة الإسلام .

فقد روى عالمهم الكبير المازندراني حديثاً منسوباً إلى النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم ، وهو قوله : (القدرية مجوس هذه الأمة) . ثم علق عليه ، فقال : (هم الأشاعرة وغيرهم من القائلين بالجبر)(١) .

وقال أيضاً : (فالأشاعرة هم أنذل وأنزل من أن يفهموا هذه المعاني)(٢) .

وأطبق علماء الشيعة على وصف الأشاعرة بالشرك والتجسيم ، بسبب إثباتهم بعض الصفات ، وهي الصفات التي تسمى (صفات المعاني) وهي سبع صفاتٍ أثبتها الأشاعرة لله عز وجل ووصف الأشاعرة بالشرك والتجسيم يلزم منه وصف كافة أهل

---

(١) شرح أصول الكافي - محمد صالح المازندراني (١١/٥) .

(٢) شرح أصول الكافي (١٠٢/٣) .

السنة والجماعة بالشرك والتجسيم على معتقد الشيعة!

يقول العالم الإمامي الشيعي المازندراني : (إن كثيراً من محدثي العامة والكرامية بل الأشاعرة يثبتون له تعالى صفات الجسم ولوازم الجسمية ويتبرَّءون من التجسيم ، مثلاً يقولون : إنه على العرش حقيقة ، وإنه يُرى في الآخرة ، ورآه نبينا صلى اللّٰه عليه وآله وسلم بعيني رأسه ، وأنه ينزل في كل ليلة جمعة ولكن ليس جسماً ، وهذا تناقض يلتزمون به ولا يبالون ، وهذا يدل على عدم تفطنهم لكثير من اللوازم البينة أيضاً ، وعندنا هو عين التجسيم)[١] .

وقد نسبَ نصير الدين الطوسي ، وعلامتهم الحليّ ، و محمد حسن ترحيني إلى الأشاعرة الشرك والتعدد في ذات اللّٰه ، حيث زعموا أنه يلزم الأشعرية من مذهبهم في الصفات وجود قدماء مع اللّٰه في الأزل ، وهذا شرك وتعدد[٢] .

---

(١) شرح أصول الكافي (٣/٢٠٢) .

(٢) انظر : شرح الإشارات والتنبيهات - الطوسي ، تحقيق : سليمان دنيا (٣/ ٧٠) الطبعة الثالثة ، دار المعارف . والرسالة السعديّة- الحلي ، عناية : محمود المرعشي ، عبدالحسين محمد علي بقال (ص ٥٠ - ٥١) . والإحكام في علم الكلام- السيد محمد حسن (ص٢٥) دار الأمير للثقافة والعلوم .

وهذا حافظهم رجب البرسي - أحد علماء الإمامية - يقول : (وأما الإمامية الإثناعشرية ، فإنهم أثبتوا لله الوحدانية ، ونفوا عنه الإثنينية ، ونهوا عنه المثل والمثيل ، والشبه والتشبيه ، وقالوا للأشعرية : إن ربنا الذي نعبده ونؤمن به ليس هو ربكم الذي تشيرون إليه ، لأن الرب مبرأ عن المثلات ، منزه عن الشبهات ، متعال عن المقولات)[١] .

وقال مصطفى الخميني : (ولعمري إن هذه الشبهة ربما أوقعت الأشاعرة في الهلكة السوداء ، والبئر الظلماء ، حتى أصبحوا مشركين أو ذاهلة عقولهم عن الدين)[٢] .

وذهب العالم الإمامي الشيعي نعمة اللّه الجزائري -بناءً على ما تقدم- إلى الحكم على الأشعرية بالكفر ، بل وجعلهم في درجة أسوء من المشركين الأصليين !

---

(١) مشارق أنوار اليقين-البرسي ، تحقيق : علي عاشور (ص٣٣٧) الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت .

(٢) تفسير القرآن الكريم مفتاح أحسن الخزائن الإلهية- السيد مصطفى الخميني ، تحقيق : مؤسسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني (١٠٣/١) مؤسسة العروج ، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ .

يقول : (الأشاعرة[١] لم يعرفوا ربهم بوجه صحيح ، بل عرفوه بوجه غير صحيح ، فلا فرق بين معرفتهم هذه وبين معرفة باقي الكفار .. فالأشاعرة ومتابعوهم أسوء حالاً في باب معرفة الصانع من المشركين والنصارى .. فمعرفتهم له سبحانه على هذا الوجه الباطل من جملة الأسباب التي أورثت خلودهم في النار مع إخوانهم من الكفار)[٢] .

---

(١) أقول : يحاول الشيعة استخدام الحيل الملتوية في تفريق أهل السنة ، وذلك كقولهم : (نحن ليس بيننا وبين السنة مشكلة ، مشكلتنا فقط مع الوهابية أو مع السلفية) . وهذا القول مع كونه محاولة شيعية للتفريق بين أهل السنة ؛ فإنه أيضاً من الكذب المحض ، لأنهم كما قرأتَ سابقاً لا يفرقون في تكفيرهم بين أحد من أهل السنة .

(٢) الأنوار النعمانية (٢/ ٢٧٨) .

المبحث الثالث

موقفهم من الصوفية

لم يكن موقف الشيعة من الصوفية أحسن حالاً من موقفهم من سائر المخالفين ، فالصوفية عندهم مثل الأشاعرة ، والذين هم من عامة المسلمين من غير الشيعة .

يقول شيخ الشيعة ومحدثهم وفقيههم الحر العاملي :

(لا يوجد للتصوف وأهله في كتب الشيعة وكلام الأئمة عليهم السلام ذِكْرٌ إلا بالذم ، وقد صنفوا في الرد عليهم كتباً متعددة ذكروا بعضها في فهرست كتب الشيعة .

قال بعض المحققين من مشايخنا المعاصرين : اعلم أن هذا الاسم وهو اسم التصوف كان مستعملا في فرقة من الحكماء الزايغين عن الصواب ، ثم بعدها في جماعة من الزنادقة وأهل الخلاف من أعداء آل محمد كالحسن البصري وسفيان الثوري ونحوهما ، ثم جاء فيمن جاء بعدهم وسلك سبيلهم كالغزالي رأس الناصبين لأهل البيت)[١] .

---

(١) رسالة الإثنى عشرية في الرد على الصوفية – الحر العاملي (ص ١٣-١٦) .

وقال أيضاً : (روى شيخنا الجليل الشيخ بهاء الدين محمد العاملي في كتاب الكشكول ، قال : قال النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم : لا تقوم الساعة حتى يخرج قوم من أمتي اسمهم صوفية ليسوا مني ، وإنهم يهود أمتي وهم أضل من الكفار ، وهم أهل النار)(١) .

ثم عقد فصلاً كاملاً تحت عنوان : (ذكر بعض مطاعن مشايخ الصوفية وجواز لعن المبتدعين والمخالفين والبراءة منهم)(٢) وسرد الروايات والأقوال في مطاعن الصوفية ولعنهم والافتراء عليهم !

۞ ۞ ۞ ۞

(١) رسالة الإثنى عشرية في الرد على الصوفية - الحر العاملي (ص ١٣-١٦) .

(٢) انظر كامل : رسالة الإثنى عشرية في الرد على الصوفية - الحر العاملي .

المبحث الرابع

لمحة سريعة لواقعهم التاريخي مع أهل السنة

أما من الناحية العملية فإن ذاكرة الأمة الإسلامية المثقلة بالآلام لا زالت تستعيد الصور المريرة لسقوط بغداد عام ٦٥٦هـ ، وتتذكر ما فعله الوزير الشيعي ابن العلقمي حينما خان الخليفة الذي وثق به ، وتعاون مع التتار سراً لغزو بغداد وتدميرها .

فقد ذكر قطب الدين اليونيني البلعبكي أن ابن العلقمي كاتب التتار وأطمعهم في البلاد وأرسل إليهم غلامه وأخاه بذلك[١] .

وذكر الإمام الذهبي أن ابن العلقمي استطاع أن يقطع أخبار الجند الذين استنجد بهم المستنصر ، وأنه بذل جهده في أن يزيل دولة بني العباس ويقيم علوياً ، وأخذ يكاتب التتار ويراسلونه[٢] .

وذكر اليافعي أن التتار دخلوا بغداد ووضعوا السيف في أهلها ، واستمرَّ القتل والسبي نيفًا وثلاثين يوماً ، وقلَّ من نجا . وذكر أن

---

(١) انظر : ذيل مرآة الزمان – سبط ابن الجوزي (٨٥/١)

(٢) دول الإسلام – (١١٨/٢) .

سبب دخولهم هو ابن العلقمي الذي كاتبهم وحرضهم على قصد بغداد ليقيم خليفة علوياً ، وكان يكاتبهم سرًّا ، ولا يدع المكاتبات تصل إلى الخليفة .

ثم ذكر اليافعي أن الوزير ابن العلقمي خدع الخليفة وأوهمه أن التتار يريدون عقد الصلح معه وحثه أن يخرج إليهم بأولاده ونسائه وحاشيته ، فخرجوا فضربت رقاب الجميع ، وصار كذلك يخرج طائفة بعد طائفة ، فتضرب أعناقهم حتى بقيت الرعية بلا راع ، وقُتِلَ من أهل الدولة وغيرهم ألف ألف وثمان مائة(١) .

ويقول المؤرخ الشيعي نور اللّٰه الششتري المرعشي ما نصه عن حقيقة الدور الذي لعبه ابن العلقمي : (إنه كَاتَبَ هولاكو والخواجه نصيرالدين الطوسي ، وحرضهما على تسخير بغداد للانتقام من العباسيين بسبب جفائهم لعترة سيد الأنام ﷺ)(٢) .

ويقول العالم الشيعي الخوانساري عند ترجمته لنصير الدين الطوسي ما نصه :

---

(١) مرآة الجنان (ج٤/١٣٧ -١٣٨) .

(٢) مجالس المؤمنين (ص٤٠٠) .

(ومن جملة أمره المشهور المعروف المنقول حكاية استيزاره للسلطان المحتشم هولاكو خان ، ومجيئه في موكب السلطان المؤيد مع كمال الاستعداد إلى دار السلام بغداد لإرشاد العباد وإصلاح البلاد ، بإبادة ملك بني العباس ، وإيقاع القتل العام من أتباع أولئك الطغام ، إلى أن أسال من دمائهم الأقذار كأمثال الأنهار فانهار بها في ماء دجلة ، ومنها إلى نار جهنم دار البوار)[١] !

ومما يُؤسف له أنَّ هذا التصرف كان محلّ تقدير واحترام من الشيعة ، بل إنَّ جنس هذا الفعل مُقرر في الأدبيات الشيعية ، ومحلّ تقدير واستحباب !

فهذا إمام الشيعة المعاصر الخميني يقول بكل صراحة ما نصه : (إذا كانت ظروف التقية تلزم أحداً منا بالدخول في رَكْب السلاطين فهنا يجب الامتناع عن ذلك حتى لو أدى الامتناع إلى قتله ، إلا أن يكون في دخوله الشكلي نصر حقيقي للإسلام والمسلمين مثل دخول علي بن يقطين ونصير الدين الطوسي رحمهما اللّه)[٢] .

---

(١) روضات الجنات (٦/٣٠٠) .

(٢) الحكومة الإسلامية (ص١٤٢) .

أما خدمة نصير الدين الطوسي فقد عرفها الجميع حينما قدم مع التتار لإبادة بغداد ، أما خدمة علي بن يقطين للإسلام فندع بيانها لأحد علماء الشيعة وهو علّامتهم نعمة اللّه الجزائري وملخصها كما يلي حسب ما ذكره :

أن علي بن يقطين كان مسئولاً في الدولة العباسية ، وسنحت له الفرصة لقتل خمسمائة سني وصفهم بقوله : (جماعة من المخالفين) فقتلهم بأن هدم عليهم سقف السجن فماتوا كلهم ، فأرسل يستفسر عن عمله عند إمامهم المعصوم فأقره على عمله وعاتبه أنه لم يستأذنه في قتلهم . ثم جعل كفارة كل رجل من أهل السنة (تيساً) وقال : والتيس خير منهم[١] .

يقول العالم الشيعي نعمة اللّه الجزائري معلقاً على هذه الحادثة :

(فانظر إلى هذه الجزية التي لا تعادل دية [يقصد أهل السنة] أخيهم الأصغر وهو كلب الصيد ، فإن ديته عشرون درهماً ، ولا دية أخيهم الأكبر وهو اليهودي)[٢] .

---

(١) الأنوار النعمانية : (٣٠٨/٢) .

(٢) الأنوار النعمانية (٣٠٨/٢) .

ومما يؤسف له أن ابن العلقمي لم يكن وحده في ذلك ، بل كان معه كثرة كاثرة من شيعة بغداد قد فعلوا فعله!

فقد ذكر المؤرخ رشيد الدين الهمداني والمؤرخ أبو المحاسن أن الشيعة في : الكرخ ، والحلة ، وبغداد ، خرجوا في استقبال هولاكو استقبال الفاتحين الأبطال ، والتحق كثير من الشيعة بجيش المغول ، وأقاموا الأفراح ابتهاجاً بهم[1] !

ومن الخدمات الجليلة التي قدمها نصير الدين الطوسي تلك الرسالة التي كتبها -بوصفه وزيراً لهولاكو- إلى أهل السنة في الشام ، يهددهم فيها ويتوعدهم إذا هم لم يدخلوا في طاعة التتار ، وأنه سوف يفعل بهم كما فعل بأهل بغداد!!

يقول الطوسي : (اعلموا أنا جند الله ، خلقنا من سخطه ، فالويل كل الويل لمن لم يكن من حزبنا ، قد خربنا البلاد ، وأيتمنا الأولاد ، وأظهرنا في الأرض الفساد ، فإن قبلتم شرطنا ، وأطعتم أمرنا ، كان لكم مالنا ، وعليكم ما علينا)[2] .

وهذا عميد الطائفة الشيعة في بغداد وقت سقوطها ابن طاووس

(١) جامع التواريخ (٢٥٩/١) . النجوم الزاهرة (٤٩/٧) .

(٢) مخطوطة في مكتبة كلية الآداب - جامعة بغداد : (رقم ٩٧٥) .

يعلن عن فرحته بدمار دولة الإسلام ويسميه فتحاً ، ويترحم على هولاكو . حيث يقول :

(يوم ثامن عشر محرم وكان يوم الإثنين سنة ٦٥٦هـ فتح ملك الأرض - يقصد هولاكو - زيدت رحمته ومعدلته ببغداد)[١] .

وذكر المؤرخ الشيعي ابن الطقطقي أن ابن طاووس أصدر فتوى لهولاكو يفضل فيها العادل الكافر على المسلم الجائر[٢] !!

يقول العالم الشيعي علي العدناني الغريفي معلقاً على هذه الحادثة : (وقد نال ابن طاووس بفتياه هذه مقاماً كبيراً في نفس الكافر المحتل)[٣] .

ومكافأة له قام هولاكو بتعيينه مرجعاً دينياً للشيعة (!!) يقول ابن طاووس نفسه : (ولم نزل في حمى السلامة الإلهية ، وتصديق ما عرفناه من الوعود النبوية ، إلى أن استدعاني ملك الأرض - هولاكو - إلى دركاته المعظمة جزاه اللّٰه بالمجازات المكرمه في صفر ، وولاني على العلويين والعلماء والزهاد ،

---

(١) إقبال الأعمال- ابن طاووس (ص٥٨٦) .

(٢) الفخري في الآداب السلطانية (ص١٧) .

(٣) مقدمة بناء المقالة الفاطمية - ابن طاووس (ص١٨) .

وصحبت معي نحو ألف نفس ومعنا من جانبه من حمانا إلى أن وصلت الحلة ظاهرين بالآمال)(١) .

وذكر علامتهم ابن مطهر الحلي أن أباه والسيد محمد ابن طاووس والفقيه ابن أبي العز ، أجمع رأيهم على مكاتبة هولاكو ، بأنهم مطيعون داخلون تحت دولته . وأن هولاكو سألهم بما معناه : لماذا تركتكم خليفتكم؟ ولماذا تخونونه؟ ألا تخافون منه إذا انتصر عليَّ!

فأجابه والد ابن مطهر الحلي بأن رواياتهم المذهبية تحثهم على مبايعتك وترك الدولة العباسية ، وأنك أنت المنصور الظافر!

ويعلق ابن مطهر الحلي على قصة والده : (فطيب قلوبهم وكتب فرماناً باسم والدي يطيب فيه قلوب أهل الحلة وأعمالها)(٢) .

۞ ۞ ۞ ۞

---

(١) إقبال الأعمال (ص٥٦٨) .

(٢) سفينة النجاة – عباس القمي (١/٥٦٨) . أقول : من فضل الله أنني قد انتهيت من كتاب وثقته من مصادر الشيعة الأصلية ومن نصوصهم المهمة والخطيرة ، والمتعلقة بقضية سقوط الخلافة الإسلامية في بغداد سنة ٦٥٦هـ ، وسيجد القارئ الكريم ما يصدمه من أقوال وأفعال هؤلاء والتي يندى لها جبين كل حر . وقد سميتُ الكتاب (ثقوب وثغرات في أسوار بغداد) ولعله أن يرى النور قريباً بإذن الله .

المبحث الخامس

موقفهم من الفرق الشيعية الأخرى

يبدو أن الغلو في التكفير قد وصلَ إلى حدٍ عظيمٍ ، حيث تعدى الفرق غير الشيعية إلى الفرق الشيعيَّة - أيضاً - من غير الإثنى عشرية ، كالواقفة ، والفطحيَّة ، والناووسيَّة ، والزيدية ، والإسماعيلية ، والعلوية النصيرية ، وغيرها من فرق الشيعة الأخرى ، التي تُعتبر كافرةً عند الإثنى عشرية !

فهذا مرجعهم الكبير المعاصر آية اللّٰه العظمى محمد الحسيني الشيرازي ، يقول : (وأما سائر أقسام الشيعة غير الإثنى عشرية ، فقد دلت نصوص كثيرة على كفرهم ككثير من الأخبار المتقدمة ، الدالة على أن من جحد إماماً كان كمن قال : إن اللّٰه ثالث ثلاثة)[١] .

ويقول شيخهم وعلامتهم بهاء الدين العاملي : (المستفاد من تصفح كتب علمائنا ، المؤلفة في السير والجرح والتعديل ، أن أصحابنا الإمامية كان اجتنابهم لمن كان من الشيعة على الحق

---

(١) كتاب الفقه - الشيرازي (٤/ ٢٦٩) دار العلوم ، بيروت - لبنان .

أولاً ، ثم أنكر إمامة بعض الأئمة -عليهم السلام - في أقصى المراتب ، بل كانوا يحترزون عن مجالستهم ، والتكلم معهم فضلاً عن أخذ الحديث عنهم ، بل كان تظاهرهم بالعداوة لهم أشد من تظاهرهم بها للعامة(١) ، فإنهم كانوا يتقون العامة ، ويجالسونهم وينقلون عنهم ، ويظهرون لهم أنهم منهم ، خوفا من شوكتهم ، لأن حكام الضلال منهم .

وأما هؤلاء المخذولون : فلم يكن لأصحابنا الإمامية ضرورة داعية إلى أن يسلكوا معهم على ذلك المنوال ، وخصوصاً

---

(١) **أقول** : يقصد بمصطلح (العامة) أهل السنة . ثم تأمل في اعترافه بخداعهم لأهل السنة وإظهارهم خلاف ما يبطنون ، واعتقادهم بأن حكام المسلمين حكام ضلال! ألا يحسن بالمخلصين والصادقين والعقلاء أن يراجعوا مواقفهم ، وأن يتأملوا عقيدة الكراهية عند الشيعة -هداهم الله- تجاه الآخرين ، فهم كما يقرر شيخهم العاملي يداهنون أهل السنة حينما يكون أهل السنة أقوياء وبيدهم الحكم ، لكن حينما لا تكون بين أهل السنة قوة ؛ فإن الشيعة لا يحتاجون بعدُ للتقية أو المداهنة ، ولذلك فإنهم يظهرون على حقيقة طباعهم وقناعاتهم ، كما فعلوا مع فرقة الواقفة على ما يحكي ذلك شيخهم بهاء الدين العاملي!

أو كما يفعلون اليوم بالعراق من قتْلٍ يومي لأهل السنة على يد المليشيات الشيعية وفرق الموت الصفوية ، والتي ترمي يوميا بأكثر من خمسين جثة بلا رأس لأطفال وشيوخ وشباب أهل السنة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

« الواقفة » ، فإن الإمامية كانوا في غاية الاجتناب لهم ، والتباعد عنهم ، حتى أنهم كانوا يسمونهم « الممطورة » أي الكلاب التي أصابها المطر . وأئمتنا -عليهم السلام- كانوا ينهون شيعتهم عن مجالستهم ومخالطتهم ، ويأمرونهم بالدعاء عليهم في الصلاة ، ويقولون : إنهم كفار ، مشركون ، زنادقة ، وأنهم شر من النواصب ، وأن من خالطهم فهو منهم . وكتب أصحابنا مملوءة بذلك)(١) .

ويقول عالمهم البياضي في حق الشيعة الإسماعيلية : (إنهم خارجون عن الملة الحنيفية بالاعتقادات الرديئة(٢) ، وذلك أنهم قالوا : كل ظاهر فله باطن ، وأن الله بتوسط كلمة "كن" أوجد

---

(١) مشرق الشمسين- الشيخ بهاء الدين العاملي (٢٧٣-٢٧٤) مطبعة مهر ، الطبعة الحجرية ، إيران - قم ١٣٩٨ . أقول : وقد نقل شيخهم الحر العاملي الكلام السابق بطوله مؤيداً وناصراً له في وسائل الشيعة (٣ / ٢٠٣- ٢٠٤) .

(٢) **أقول** : لم تقف الإسماعيلية مكتوفة اليد أمام هذا الهجوم الإثنى عشري ، فقد ردت الإسماعيلية التضليل بالتضليل ، والتكفير بالتكفير ، حيث رأوا أن بعض أئمة الإثنى عشرية أئمة ضلال ، وأنهم أعظموا الفرية على الله ، وأنهم جاءوا ليطفئوا نور الله ، ومنعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ، وسعوا في خرابها ، وأنهم شابهوا عقيدة النصارى في مهديهم الذي سيرجع آخر الزمان ليفصل بين الحق والباطل . . إلخ . انظر : سرائر وأسرار النُطقاء - الداعي جعفر بن منصور اليمن ، تحقيق : مصطفى غالب (ص ٢٤٦- ٢٦٤) دار الأندلس .

عالمي الخلق والأمر ، فجعلوه محتاجاً في فعله إلى الواسطة والآلة)[١] . وقال علامتهم محمد طاهر النجفي : (وأما الإسماعيلية فمذهبهم واضح البطلان ، لسوء عقائدهم ، وقبح مذاهبهم)[٢] . ونصَّ المحقق الحلي على نجاسة الإسماعيلية[٣] . ووصف عبدالله شُبر الإسماعيلية بأنها : (من الفرق الضالة المبتدعة)[٤] . وقال النوري الطبرسي : (ووافقنا على ذلك السيد الفاضل المعاصر- الخونساري - رحمه الله في الروضات في ترجمة جلال الرومي حيث قال : الإسماعيلية[٥] وإن كانوا في ظاهر دعاويهم الكاذبة ، من جملة فرق الشيعة المنكرين لخلافة غير أمير المؤمنين عليه السلام ، إلا أن الغالب عليهم الإلحاد ، والزندقة ، والمروق عن الدين ، والخروج عن

---

(١) كتاب الصراط المستقيم إلى مستحقي التقديم - علي العاملي البياضي (٢/ ٢٧٢) المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية .

(٢) الأربعين في إمامة الأئمة الطاهرين- النجفي القمي ، تحقيق : السيد مهدي الرجائي (ص٤٩٢) .

(٣) انظر : شرائع الإسلام - الحلي (١/ ١٢) .

(٤) حق اليقين (ص٢٥١) .

(٥) أقول : يشتكي الدكتور الإسماعيلي المعاصر عارف تامر من ظلم الشيعة الإثنى =

دائرة الموحدين ، والمليين ، وأتباع النبيين)(١) .

وكما ترى فإن شعار التكفير والإقصاء وصل حتى الفرق الشيعية الأخرى ، ولم يختلف حالها عن غيرها من الفرق والطوائف غير الشيعية .

= عشرية لطائفته الإسماعيلية عبر التاريخ ، حيث يقول : (صرت أخشى أن ينالني مثلهم -يقصد قدماء الإسماعيلية- وأن يأتيني الدور فأتهم في عقيدتي وديني . إنَّ كل هذا يدفعني إلى الترحم على الأمويين والعباسيين الأعداء ، فهم ليسوا أقسى قلباً من أبناء العم الأقربين) . كتاب افتتاح الدعوة- القاضي النعمان التميمي ، تقديم : عارف تامر (ص١٠) الطبعة الأولى ١٤١٦هـ ، دار الأضواء - بيروت .

أقول : تأمل أخي القارئ -وفقك الله- ما قاله الدكتور الإسماعيلي ، ثم تمعن طويلاً في كلام ابن تيمية ، لتعلم أن ما يقوله هذا الإمام الرباني آتٍ عن تجربة حقيقة ، وأنه لا يرمي بالكلام في الهواء .

قال ابن تيمية : (فأهل السنة يستعملون معهم -أي المخالفين- العدل والإنصاف ، ولا يظلمونهم ، فإن الظلم حرام مطلقاً . . بل أهل السنة لكل طائفة من هؤلاء خير من بعضهم لبعض ، بل هم للرافضة خير وأعدل من بعض الرافضة لبعض ، وهذا مما يعترفون هم به ، ويقولون : أنتم تنصفوننا ما لا ينصف بعضنا بعضاً . . ولا ريب أن المسلم العالم العادل أعدل عليهم وعلى بعضهم من بعض) . منهاج السنة النبوية (٥/ ١٥٧- ١٥٨) .

(١) خاتمة مستدرك الوسائل - المحقق الميرزا النوري الطبرسي (١ / ١٣٩) تحقيق : مؤسسة آل البيت لإحياء التراث ، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ، مدينة قم .

المبحث السادس

التكفير الشيعي الإمامي الداخلي

لأن الشيعة الإمامية - للأسف - فرقة تؤمن بالتعصب والحدية فقد انتقل هذا السُعار إلى داخل الفرقة نفسها ، ووصل إلى درجات خطيرة من التعصب والبعد عن الإنسانية!

فقد انقسمت الشيعة الإثنا عشرية إلى فرق وطوائف كثيرة ، من أبرزها : الإخبارية ، والأصولية ، والشيخيَّة . وقد جرى بين تلك الطوائف ردود ومنازعات ، وتكفير وتشنيع ، حتى إن بعضهم أفتى بتحريم الصلاة خلف البعض الآخر[١] !

يقول حجتهم محمد حسن آل الطالقاني : (أوغل الإخباريون في الازدراء بالأصوليين إلى درجة عجيبة ، حتى إننا سمعنا من مشايخنا والأعلام وأهل الخبرة والاطلاع على أحوال العلماء ، أن بعض فضلائهم كان لا يلمس مؤلفات الأصوليين بيده تحاشيا من نجاستها ، وإنما يقبضها من وراء ملابسه)[٢] .

---

(١) انظر : تنقيح المقال في أحوال الرجال (٢ / ٨٥) ، مع علماء النجف - محمد جواد مغنية (ص٧٤) ، الشيخية - الطالقاني (٣٩) .

(٢) الشيخية (ص٣٩) . وانظر : جامع السعادات (ص١) .

وتكلم الطالقاني عن طبيعة الخلاف بينهم ، وإلى أي مستوى هبط بين علماء المذهب الشيعي ، فقال : (كانت اللهجة قاسية والأسلوب نابياً ، وقد تزعم فريق الإخباريين في تلك الفترة الميرزا محمد النيشابوري المعروف بالإخباري ، كما تزعم فريق الأصوليين الشيخ جعفر كاشف الغطاء النجفي)[١] .

ثم يقول الطالقاني : (وقد تطرف الإخباري إلى أبعد حد ووسع شقة الخلاف كثيراً ، وتخلى عن الأدب والحشمة والاحترام في مناقشته لعلماء الأصوليين في نقده ورده على السواء ، وتطاول على أساطين الدين وعظماء المذهب بالشتم واستعمل بذيء القول ومرذوله ، أدى إلى وقوف العلماء قاطبة في وجهه وإجماعهم على هتكه وتحطيمه ، حتى انتهت القصة بمأساة فظيعة ، فقد قُتِلَ على أيدي العوام مع كبير أولاده بهجوم شنّ على داره في الكاظمية ، وسلمت جثته إلى السكان للعبث بها)[٢] .

وقد كان العالم الإخباري المقتول صريحاً في قوله ، يقول

---

(١) الشيخية (ص ٣٩) .

(٢) الشيخية (ص٤٠) .

عنه الطالقاني :

(الإخباري تمادى في غيّه وتوسّع في اتهاماته لأساطين العلماء ونسبة الآراء الفاسدة والفتاوى المفتعلة القذرة لهم ، كنسبته القول بجواز اللواط إلى السيد محسن الأعراجي ، ونسبته أمثال ذلك إلى الشيخ أبي القاسم القمي ، والسيد علي الطباطبائي وغيرهما)[١] .

فغضب كاشف الغطاء من العالم الإخباري ، فألف كتابه (كاشف الغطاء عن معايب الميرزا محمد الأخباري عدو العلماء) . فقام الشيخ الإخباري ورد على كاشف الغطاء بكتاب سماه (الصيحة بالحق على من ألحد وتزندق)[٢] !

يقول الطالقاني : (ولما توفي كاشف الغطاء بمرض الخنازير ، قال الإخباري : مات الخنزير بالخنازير . هكذا كان الإخباري يرد)[٣] .

---

(١) الشيخية (ص٤١) .

(٢) انظر : روضات الجنات- الخونساري (١/ ٥٢) ، الذريعة إلى تصانيف الشيعة (٧/ ٣٨) .

(٣) لباب الألقاب في ألقاب الأطياب (ص ٨٧) ، قصص العلماء (ص ١٣٣) ، الشيخية (ص ٤٢) .

وقد اشتعل الخلاف الداخلي بين الشيعة (الإخبارية والأصولية) وتأججت الأمور ، واستفحلت المهاترات ، حتى أدت إلى مالا يخطر ببال .

يقول الطالقاني : (حتى أدت إلى هتك البعض لحرمة البعض ، وانتقاص كل واحد الآخر . وكان كل فريق يرى وجوب قتل الفريق الآخر ، وتطورت القضايا إلى أمور شخصية بحته تقريباً ، فكان كل من الخصمين يهدف إلى الانتقام من خصمه والتطويح به)[1] !

ثم بعد مدة من الزمن توقف الصراع الثنائي مؤقتاً لوجود عدوٍ مشتركٍ بينهم ، وهي فرق الشيخية - شيخها أحمد الأحسائي الذين اهتموا بالمعرفة الروحانية ، والعلوم الفلسفيَّة - التي أدى ظهورها إلى اتفاق الإخبارية والأصولية ضد هذا الخصم الجديد . !

يقول الطالقاني : (كتب البرغاني الشهيد الثالث إلى علماء كربلاء بأنه كفر الأحسائي وطلب متابعتهم في ذلك ، فاستجابوا وارتفعت الأصوات معلنة كفره وصار الناس في حيرة مما حدث

(١) الشيخية (ص ٤٢) .

ثم سادت الخصومة وتوسع الخلاف ، وظهر لدى الشيعة مبدأ جديد ، وقبرت خلافات الإخباريين والأصوليين ، وحلت محلها الشيخية وخصومها)[١] .

وتوالت التكفيرات من كل من حدب وصوب ، فقد كفره : السيد علي الطباطبائي ، والسيد مهدي ، والشيخ محمد جعفر شريعة مداري ، والمولى أغا الدربندري ، والمازندراني ، والسيد إبراهيم القزويني ، والشيخ حسن النجفي ، والشيخ محمد حسين الصفهاني .

ثم جرت بعد ذلك مقتلة رهيبة بين الطريفين ، وامتدت المجازر الفظيعة إلى كل دارسٍ ومدرسٍ للمعرفة الروحيَّة والعلوم الفلسفيَّة في إيران ، وأصبح حضور تلك الدروس من أعظم الجرائم ، وأكبر الكبائر!

يقول الطالقاني : (ما سجله التاريخ عن تلك المجزرة : أن شاعراً من أهل كاشان اسمه « باقر خرده ئي ») كان من تلاميذ محمود النقطوي رئيس أحد تلك المكاتب الفلسفية ، وقد تذرع بعذر قبيح طلباً للسلامة ، ذلك أنه ادعى امتهان اللواط والهيام

---

(١) الشيخية (ص١٠٠) .

بغلام أمرد من تلامذة النقطوي ، وأنه يتردد إلى المكتب ليحاول الفسق بالغلام لا طلباً للعلم ، وقد شفع له بعض علماء خراسان وأيدوا ادعاءه فعفي عنه ونجا من الموت !

ومن الخزي أن يُسَجّل التاريخ في حكم عباس الصفوي هذه المثلبة ، وأن الانحراف الخلقي والشذوذ الجنسي ، أهون لديه من طلب المعرفة)[١] .

أقول : انظر إلى أين وصل مستوى الخصومة بين شيوخ الشيعة! هتك للأعراض ، واتهام باللواط والفواحش ، وتصدير لفتاوى التكفير والفسوق ، وتشجيع على القتل وسفك الدماء ، ثم مطاردة المخالفين في أماكنهم واجتثاثهم وتصفيتهم جسدياً حتى أصبح فعل اللواط بالغلمان عند بعض علماء الشيعة أهون من حضور دروس المخالفين لهم !

❁ ❁ ❁ ❁

---

(١) الشيخية (ص ٣٣٦) . وانظر : الذريعة إلى تصانيف الشيعة (٧/٢٦٥) .

الخاتمة

أخي القارئ الكريم .. قد وقفت بنفسك على سيرة ابن تيمية - رَحِمَهُ اللَّهُ - ورأيت حياة الرجل وعلمه وصدقه وزهده ، وتضحيته وتفانيه في خدمة ووحدة الأمة الإسلامية . ثم وقفتَ بنفسك على أقواله في مسألة التكفير ، وقرأتَ سيرته السلوكية والأخلاقية تجاه المخالفين ، ورأيتَ كيف كان رحيماً شفيقاً متسامحاً مع مخالفين وشانئيه ، يسعون له جادين بالعداوة والبغضاء الكراهية ، وهو يسعى لهم بكل صدقٍ بالمحبة والأخوة والتسامح .

ثم إنك يا أخي القارئ الكريم وقفتَ على جملة من أقوال بعض علماء الشيعة حول مسألة التكفير ، ورأيتَ حجم الإقصاء عندهم ، ومدى غلوهم أو اعتدالهم في مسألة التكفير . وأنا الآن وبعد المقارنة بين الحالين وبين الخُلقين أترك لك أخي القارئ الكريم الحكم الموضوعي من خلال النصوص الموثقة والأقوال المعتبرة للطرفين ، لترى هل أنصفوا ابن تيمية أم ظلموه ؟

نسأل اللّٰه أن يوفق الجميع للحق والهدى ، وأن يرينا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه ، ويرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه ، وصلى اللّٰه وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

موضوعات الكتاب